AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

تجليد كتب
صالح الدقر

396
M34kAz

JAFET LIB.
24 APR 1957
Circulation Dept.

6 JUN 1970

JAFET LIB.
24 OCT 1978

JAFET LIB.
-2 JAN 2015

305.42
M341p2

خلق المرأة

والمقابلة بين طبائعها وطبائع الرجل

بحث علمي تحليلي

يتناول ما في المرأة بفطرتها من المواهب والسجايا وما اكتسبته منها بتأثير تربيتها ومعيشتها في العصور السالفة ويشرح احساس المرأة وذكاءها وارادتها تشريحاً وافياً فيبين ما ينطوي عليه قلبها من الحب والبغض والانانية والغيرية وما في صدرها من الرحمة والشفقة والحسد والغيرة الخ . وفيه درس لمصير المرأة وغايتها وما تحتمله حالتها من اوجه التحسين المختلفة

تأليف

هنري ماريون

الاستاذ سابقاً في كلية الآداب في باريس

تعريب

اميل زيدان

28985

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال

بمصر سنة ١٩٢٤

مقدمة المعرب

ان هذا العصر الذي آلى على نفسه تهديم كل قديم بالٍ يمتاز فيما يميزه ـ بحركتين اجتماعيتين ليس يعرف خطورتهما الا من راقب سيرهما العجيب في الزمن الحديث وهما :

الحركة الاشتراكية

والحركة النسائية

أما الحركة الاشتراكية فانها ترمي في جوهرها الى التسوية بين البشر في الحقوق والواجبات والغاء الاثرة التي نالها البعض من جراء احتياز الاموال والاملاك وتوارثها جيلاً بعد جيل ، حتى يتسنى لكل عامل أن ينال ثمرة تعبه الحقة فلا يعود ثمت امتياز الا لاقدر الناس على خدمة الناس

وأما الحركة النسائية فغايتها الاولى رفع مقام المرأة واعتاقها من عبوديتها وترقية جميع شؤونها المادية والمعنوية ، بحيث لا تعد متاعاً او اداة للزينة والزخرفة ، بل مخلوقاً مستقلاً له غاية خاصة من الوجود يدأب في بلوغها

وبعبارة وجيزة ان الحركة الاولى ترمي الى هدم الحواجز القائمة بين الطبقات الاجتماعية في حين ان الحركة الثانية تروم ابطال التفاوت بين الشطرين اللذين يؤلفان البشرية

وكأن الطحان الهائل الاخير لم يكن الا لينشط هاتين الحركتين . فلقد تقدمتا في بضع سنوات أضعاف تقدمها في العقود الاخيرة . حتى لم يبق مجال للشك لدى كل متبصر في ان العالم على وشك الدخول في عصر انقلابات اجتماعية عظيمة تتناول النظم الاساسية التي اعتمدها البشر دهوراً طويلة

ومهما يكن الامر فليس لهذه المسائل عندنا معاشر الشرقيين ما لها من الشأن عند أهل الغرب ولم تقتض أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية درس تلك المواضيع بما تستوجبه في العالمين الاوربي والاميركي من العناية والتدقيق . ولكن يتحتم علينا ان نراقب سيرها ونرى ما يتم من أمرها عند الغربيين حتى نستفيد من اختباراتهم حين نبلغ مرتبتهم . فان سيل التقدم الحاضر جارفنا يوماً لا محالة ـ وليس ذاك اليوم في نظري ببعيد . والا تخلفنا عن مجرى المدنية الحديثة كما تخلفت الشعوب التي نسميها منحطة عن مجاري التقدم البشري في العصور السالفة

وعندي ان المسألة النسائية أجدر المسألتين بعنايتنا . ولقد تنبه غير واحد من كتّابنا الحديثين الى حالة المرأة الشرقية وما هي عليه من الجهل والضعف فكانت كتاباتهم جرثومة مباركة لم تلبث أن نمت برعاية المستنيرين من أبناء الناشئة الجديدة

وليس من شأن الشرقيين الآن ان يبحثوا في تخويل المرأة حقوق الانتخاب او نحو ذلك من المسائل التي لن يطلب منا حلها

الا بعد أجيال . وانما حاجتنا ماسة الى تعليمها التعليم المتين الملائم لحالتها وتربيتها التربية الصالحة التي بها تبرز ذاتيتها ويعلو شأنها وتسمو أخلاقها . فاذا كتب للشرق ان ينال قسطه من السعادة والهناء فلن يكون ذلك الا عن هذا الطريق

ولما كان « كل سعي يرمي الى ترقية المرأة واصلاح شؤونها ينبغي ان يتقدمه درس واف في أخلاقها وأطوارها ، ثم في مصيرها وغايتها التي يمكن ان تكون » فقد رأينا ابراز هذا الكتاب للعالم العربي على أمل ان يكون فيه للمشتغلين بتهذيب المرأة بصيص نور يعينهم على استجلاء ذلك الموضوع الخطير

***

ولطالما اشتقت الى مطالعة كتاب يشرح أخلاق المرأة وطبائعها وسجاياها تشريحاً علمياً وافياً . وما كنت لأوفق الى مرادي حتى كان صيف سنة ١٩١٨ فعثرت على هذا الكتاب ولم اكد أطالعه حتى وقع من نفسي أحسن موقع . ومع ان الكتب النفيسة التي يجدر نقلها الى العربية كثيرة فقد عولت على ترجمة هذا الكتاب من دونها لانه سلس المعاني قريب الى الافهام — مع كونه علمي المنهج

أما المؤلف فهو هنري ماريون الاستاذ سابقاً في كلية الآداب في باريس وهو من الاخصائيين في فنون التربية ولا سيما تربية البنات . وقد كانت مادة هذا الكتاب موضوع محاضرات ألقاها

في تلك الكلية ولم تنشر الا بعد وفاته . ومع ان المؤلف درس أخلاق المرأة بوجه الاجمال فانه ـ بطبيعة الحال ـ أعار الفرنسية معظم عنايته . ولعل ذلك كان لحسن حظنا فان الشرقية شديدة الشبه بالفرنسية في روحها وخلقها وأطوارها الاساسية

***

ولكن هذا الكتاب لن يُرضي فريقين من قرائه : أولهما فريق من الرجعيين سوف ينكر على المؤلف تسامحه في شأن المرأة وتعظيمه لمقامها ، وفريق آخر ولا يكون الا من السيدات ـ ينكر بعض ما جاء فيه من الصفات التي اتصفت بها المرأة . فكلمتي للفريق الاول ان قد آن لنا خلع ثوبنا البالي وتغيير نظرنا الى المرأة ، وان المؤلف لجدير بالاعجاب لرزانته واعتداله . أما الفريق الثاني فاستميحه عذراً عما لا يروق في عينيه . ولكن لا يبرح من ذهن كل قارئة لهذا الكتاب ان الكمال لله وحده وان الانسان مفطور على الضعف ـ ولا سيما ان الفضائل والنقائص مترابطة على الدوام أي ان ما نحسبه فضيلة من وجه يعد رذيلة من وجه آخر . ولا يتسنى لنا تقدير الكتاب حق قدره الا باستيعاب روحه وليس يجوز التمسك بفقرة منه دون بقيته

***

ولا حاجة الى الافاضة في الصعوبات التي يلقاها مترجم الكتب العلمية الى اللغة العربية . فقد تكبدنا مشقة عظيمة في تأدية مرامي

المؤلف الدقيقة . ولم نرَ من الحكمة اعتماد كلمات معينة للدلالة على المراد من الكلمات الاصطلاحية الفرنسية وانما كان دأبنا على الدوام ترجمة فكرة المؤلف في ذاتها لا ترجمة الفاظه . وهذا ما يضطر اليه كل من ينقل شيئاً من العلوم الحديثة الى اللغة العربية ـ ما دمنا مفتقرين الى مجمع لغوي رسمي يقرر قواعد الاشتقاق والتعريب

أصبل زبدالله

الفصل الاول

تمهيد

لاجل أن تتبين التربية الملائمة لمخلوق من المخلوقات يجب ان ننظر الى مواهبه الراهنة ثم الى مواهبه الكامنة ، أي الى ما هو عليه الآن وما عسى أن يكون عليه في مستقبل الايام

فكل سعي يرمي الى ترقية المرأة واصلاح شؤونها ينبغي أن يتقدمه بحث واف في اخلاقها واطوارها ، ثم في مصيرها وغايتها التي يمكن أن تبلغها

وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الكتاب

مباحث الكتاب

ويجدر بنا عند بدء عملنا أن نلقي نظرة شاملة الى المباحث التي ينبغي لنا أن نطرقها فنقول :

ان اخلاق المرأة بوجه عام ، او اخلاقها بوجه خاص في زمان ومكان معينين ، تقف على عاملين اساسيين :

أولهما حالتها الاجتماعية في العصور السالفة . فان جانباً عظيماً من اطوارها ومنازعها يرجع الى طريقة تربيتها ونوع معيشتها على ممر الاجيال

وثانيهما تكوينها الجسماني . اي تركيب اعضائها وما لوظائفها الحيوية في مزاجها من اثر . وهذا العامل اشد اثراً من العامل الاول واعظم شاناً

فلا بد لنا اذن من الابتداء بدرس هذين العاملين

اما فيما يخص العامل الاول ـ أي العامل الاجتماعي ـ فسننظر الى شأن المرأة في الماضي لنرى كيف تطورت حالتها في العصور المختلفة وما كان من تأثير ذلك في اخلاقها . وسيظهر لنا في اثناء هذا الدرس كيف تخصص الجنسان بالتدريج في الوظائف الاجتماعية فحاز كل فريق جانباً منها وتحددت مناطق العمل بينهما . ولعل ذلك يحدونا الى التريث بدعاوي القائلين بالمماثلة التامة بين الرجل والمرأة اذ يتضح لنا أن تلك المماثلة مخالفة للطبيعة ومضادة لمجرى التقدم البشري من قديم الزمان

على اننا سنرى من جهة اخرى ان المرأة ـ وان تكن قد تميزت عن الرجل شيئاً فشيئاً في الوظائف والاعمال ـ فانها ما برحت تسمو الى مستواه في الشأن والمقام . حتى اصبحت مثيلة له في نظره هو اولاً ، وفي نظر الشرع والعرف ثانياً . ولا يُظن ان في هذا القول تناقضاً . فليس التميز في العمل دليلا على التفاوت في المرتبة ، كما ان التساوي في المكانة لا يعني التماثل في الوظيفة

ومهما يكن من ذلك فانه يتعذر علينا انكار ما قد جاهرت به غير واحدة من ان الفروق التي نشاهدها بين اخلاق الجنسين ـ وان تكن باعثاً على تميز وظائفهما الاجتماعية ـ فانها من جهة أخرى تنشأ وتتميز بفعل تلك الوظائف نفسها . حتى لقد غالى البعض في هذا الرأي فقالوا ان الطبيعة منحت الرجل والمرأة مواهب متماثلة وأن ما بينهما من الفروق لم ينجم إلا عن العادات والشرائع . على ان قليلا من التفكير يبين لنا وجه المغالاة في هذا القول : اذ كيف

نعلل نشوء العادات وسن الشرائع ، على صورها التي عهدناها ، ان لم يكن لها في الطبيعة مصدر تستوحيه وأساس تقوم عليه ؟ ومع ذلك فلا ريب في ان العادات والقوانين قد ضخمت الفروق الاصيلة و بعدت مسافة الخلف بين الجنسين . ولما كانت القوانين والشرائع انما هي في الغالب من وضع الرجل فلا يسعنا الا التسليم نوعاً ما بصحة ما قالته امرأة في الدفاع عن جنسها وهو قولها : « تكاد عيوبنا تكون جميعاً جرائم اقترفها الرجل » ، وما قاله غريم (من اهل القرن الثامن عشر) وهو قوله : « ان معظم النقائص التي نعيبها على المرأة هي من صنع الهيئة الاجتماعية والتربية الفاسدة . . . »

اما العامل الثاني ـ وهو العامل الجسماني الفسيولوجي ـ فلا بد لنا من تمحيصه وانعام النظر فيه . فلقد ارتكب بعض الكتاب اغلاطاً جسيمة في هذا الباب ووصموا المرأة بما لا ينطبق على الواقع ، كميشله الذي مثل لنا المرأة كأنها مريضة بفطرتها

على أن هذا الدرس خطير الشأن . فينبغي ان نتفطن على الدوام لأهمية الفوارق الطبيعية بين الجنسين . « فالجنس آصل من التربية » كما قال مودسلي ، اي ان المميزات التي منحتها الطبيعة للمرأة أثبت وأعمق من الصفات التي قد تكسبها بالتربية . وعلى هذا لا نرى داعياً لتخوف البعض من انقلاب المرأة رجلا بفعل التعليم والتربية . فانه يتعذر على الانسان مجاوزة الحدود التي أقامتها الطبيعة له

ومتى احطنا بالعوامل الرئيسية التي اعتملت خلق المرأة تيسر

لنا درس ذلك الخلق بالتدقيق . وقد يرى قوم في الاقدام على هذا الدرس جرأة لا يسهل تبريرها ، اذ يتساءلون : هل في الامكان تحديد مميزات المرأة واستبانة اخلاقها مع ما هي عليه من التكتم والتقلب ؟ فالجواب انه قد يصعب الوقوف على اخلاق امرأة واحدة ـ وسنرى فيما يأتي سبب ذلك ـ واما النساء اجمالاً فان كان ثمت ما يميزهن عن الرجال في شعورهن وذكائهن وسلوكهن ، فان من الميسور استجلاء ذلك واستخلاصه بالمقابلة بين الجنسين

وسيستغرق هذا الدرس قسماً كبيراً من الكتاب لانه يبين لنا الاساس الذي ينبغي لنا اعتماده في تربية المرأة وتهذيبها ، فضلا عن انه في نفسه شائق ممتع

و بعد هـذه المقابلة يجدر بنا ان نقول كلمة عن مصير المرأة وغايتها ، اي ان ندرسها ـ لا كما كانت في الماضي ولا كما هي اليوم ـ بل كما تستطيع ان تكون وكما ينبغي ان تكون . واذا عرفنا ذلك ادركنا ماهية التربية التي بها تستعين المرأة على تحقيق غرضها من الحياة . فعلى معرفة الغاية يقف اختيار الوسيلة

ولا بد لنا في اثناء ذلك من البحث في الحركة النسائية واستقصاء امرها . فانها ذات شأن في هذا العصر ، وقد تؤدي الى حداث انقلاب خطير في المجتمع العمراني تنال به المراة مكانة لم تعهدها في العصور الغابرة . على ان مطالب النساء لاتزال مضطربة غير واضحة ، ولم تتفق الآراء بعد في هـذا الموضوع . ولكن مما لا ريب فيه ان تلك الحركة ما برحت تعظم في

الزمن الحديث ، ولا سيما ان نفراً من كبار الكتاب والفلاسفة ـ كجون ستيورت ميل ـ دعموها بنفوذهم ومؤلفاتهم

مصادر الكتاب

وخليق بنا الآن ان نرى اي المصادر نعتمد للقيام بهذا الدرس واي المناهج نسلك . فكثيرة هي المؤلفات التي تكلمت على المرأة . ولكثرتها لا نذكر لها قائمة في اول هذا الكتاب حسب العادة المألوفة . لا لأننا لم نطالعها او لم نستفد بمطالعتها ، بل لتبعثر فوائدها وتشتت موضوعاتها . فقد يطالع الواحد كتاباً كاملاً فلا يجد فيه الا اليسير من الآراء والمعلومات الجديرة بالحفظ والتدوين ، فضلا عن خلو معظم الكتب في هذا الباب من المباحث الجدية المتماسكة الاطراف على اسلوب منطقي معقول

ولعل أغزر المصادر وأفضلها ما خلفه الكتاب الاخلاقيون ـ مثل لابرويير ولاروشفوكو وبسكال ولا سيما الذين طرقوا منهم موضوع تربية البنات ـ كفنلون ومدام نكر دي سوسور ومدام دي ريموزا ـ وأخص بالذكر أيضاً أولئك الذين كان لهم من مهنتهم الاكليريكية ما سهل لهم مهمة الاطلاع على مكنونات قلب المرأة ـ كمونسنيور دوبانلو

أما الآثار الادبية المتداولة ـ كالروايات على أنواعها ـ ففيها بعض الفوائد . ولكن لا بد لطالبها من الغوص عليها لاستكشافها في مخبآتها . ومع ذلك فان هذه الآثار أجمع للعبر من تلك التي تقتصر على مدح النساء أو ذمهن لمجرد المدح أو الذم ومن غير

الاعتماد على أساس علمي صحيح . خذ مثلا بوسويه الكاتب الفرنسي الشهير فانه اراد الحط من مقام المرأة بتذكيرها انها استخرجت من جنب الرجل وصنعت من عظمة اضافية لا شأن لها . على ان مريدي الجنس اللطيف اعتمدوا على هذه القصة نفسها لبيان تفوق المرأة فقالوا ان الله برأ الخلق مبتدئاً بأحط المخلوقات ثم تدرج الى أرقاها . فكما ان آدم سما على سائر الخليقة ، كذلك حواء التي جاءت بعده سمت عليه لانها أتم منه وأقرب الى الكمال : فقد صنعت من عظمة والعظم أمتن الاجزاء في الانسان ، بل من ضلع أي من أسمى جهة في الجسم وهي جهة القلب . ومن هذا القبيل ايضاً استشهاد البعض بتجسد السيد المسيح ـ وهو ابن الله عند النصارى ـ في شكل رجل لا في شكل امرأة . وعلى ذلك يجيب الفريق الآخر انه انما فعل ذلك من قبيل المغالاة في الاتضاع . وقس على ذلك أقوالا كثيرة قد تلذ مطالعتها على سبيل الفكاهة ولكن يستحيل اتخاذها أساساً لبحث جدي مفيد

ولا يبرحن من الذهن ان الذي كتب عن المرأة في الغالب انما كان الرجل . ولو انها كانت الكاتبة لرأينا الحال بخلاف ذلك . بل أنه حالما أتيح لها ابداء رأيها أسمعت الرجل تظلمها وشكواها وهزءها أيضاً واتهمته بالاثرة والاستبداد

وان أقل قيمة في نظري من كل ما طالعته في هذا الباب نصائح المتقشفين والقديسين الذين ناصبوا المرأة العداء فنهوا عن معاشرتها بل حرموا الاقتراب منها ، كأنها في نظرهم مخلوق نجس مخوف . على انهم بذلك انما يقيمون بيننا و بين معرفتها سداً منيعاً ،

فليست المسبة حكماً وأحرى بها ألا تكون درساً . بل اني أرى في تلك الاقوال تكريماً للمرأة واعترافاً بسلطانها . فان وصف المرأة بأنها شيطان ، وتسميتها « مشعل الشيطان » و « باب جهنم » ، وموافقة ترتوليان على قوله « ان رؤيتها شر وسمعها اشر ولمسها مريع » ، وتفضيل « صفير الحراذين على غناء المرأة » كما قال القديس سيبريان ، وترديد قول الجامعة « وجدت أمر من الموت المراة التي هي شباك وقلبها اشراك ويداها قيود » — كل ذلك انما يدل على اقتدار المرأة وسطوتها ، وليس يدل على انصاف قائليه أو صدق نظرهم

فلئن سلمنا للرجل بأن المرأة تحدث له المتاعب ، حق علينا ان نسلم لها بان الرجل يحدث لها المتاعب أيضاً : لانهما يتبادلان التاثير على الدوام . واذا كان ثمت ما يعادل الشر الذي تحدثه لنا النساء فما ذلك الا الشر الذي نحدثه نحن لهن

ولذا فاول ما يتحتم علينا في درسنا ان نبدأ بطرح تلك السفاسف والاقاويل جانباً . كما أننا لن نستعين بالا ثار الأدبية الا لتستحثنا على درس المسائل التي نخوضها لا للاعتماد على آرائها

أما مصادرنا الحقيقية فهي الطبيعة والتاريخ والعلم ، وعلى الخصوص الحياة الاجتماعية التي نشاهدها كل يوم

روح الكتاب

ولنبين الآن المبادىء التي نعتمدها في درسنا هذا والروح العامة التي نسترشدها في خلال ما نطرقه من المباحث . فتلك مسائل

يحسن الاجابة عنها قبل الدخول في جزئيات موضوعنا

مهما تكن في المرأة أوجه النقص والضعف التي قد وصفتها أو تصفها بها علوم التاريخ والنفس والفيسيولوجيا فان لها رغم ذلك شخصية مستقلة ، أي أنها كالرجل مخلوق ذو غاية من الوجود يدأب في بلوغها . ولئن سلمنا بالفوارق الجسمانية والعقلية بين الرجل والمرأة فليس يترتب على ذلك تسليمنا بتفاوتهما في القيمة . فاختلاف المواهب لا يمنع التساوي في المكانة . بل ان الطبيعة قد ميزتهما وحددت لكل منهما مجالا يعمل فيه . فليس ثمت تساو بينهما الا في تنويع عملهما

على ان هناك توافقاً أساسياً يجمعهما رغم ذلك . والا لما أمكن اتحادهما وائتلافهما : فانهما الشطران اللذان يؤلفان « الانسانية » . وبهذا الاعتبار يشتركان فيما للانسان ـ بصفة كونه انساناً ـ من الحقوق البديهية وما عليه من الواجبات الاولية . فاذا نظرنا الى المرأة هذا النظر لم نبخسها قسطها من المقام والشأن ولم نتردد قط في انماء « بشريتها » ومنحها نصيبها من الحياة الجسمانية والعقلية والاجتماعية

ولئن سلمت مع العلم الاجتماعي الحديث بان تقسيم العمل بين الجنسين مقياس للرقي والتقدم فاني ـ بصفة كوني أخلاقياً صميماً ـ أرى المقياس الأمثل لذلك في مبلغ الاحترام الذي تناله المرأة ، في رفعة شأنها وعلو مكانتها ، في التساوي المعنوي الذي تقره العادات والشرائع والرأي العام

ولهذا المبدأ نتائج خطيرة الشأن فيما يتعلق بتربية المرأة . فانه

ينبغي تهيئتها للتمتع بالحياة التامة كي تعرف الواجب وتقدر المسئولية وبعبارة أخرى ينبغي تربيتها التربية الوافية ، لا تدريبها فقط على ارضاء الرجل والخضوع له . ولئن فرضنا على المرأة طاعة الرجل فان من الواجب ان تصدر تلك الطاعة عن رضى وقبول ، لا عن قهر واضطرار . وليس ضعف المرأة — اذا كان فيها ضعف — حجة لحرمانها من لذة العلم والحقيقة والاكتفاء بتكييفها وفقاً لأهواء الرجل ورغائبه . بل ينبغي أن نقول مع فنلون : « كلما كن ضعيفات تحتم علينا تقويتهن » . وليس ما يقوي حياة المرأة المعنوية سوى غرس المبادىء الصالحة فيها وتدريبها على الحكم والتمييز واقامة مثل أعلى تطمح اليه بما فيها من شعور وعقل وارادة

قالت مدام دي ريموزا : « لن يكون عقل المرأة في أمان ما زال محكم الاقفال لا تنفذ اليه الأفكار العامة . فاذا جاء زمن تزعزعت فيه سلطة العادة والتقليد — وهما القوتان اللتان تحفظانها — فعلى أي مبدأ تسير حينئذ وأي طريق تسلك بعد فقدانها ما كان يحميها ويرشدها ؟ » هذا ما قالته تلك الكاتبة البصيرة ولا ريب في ان هذا القول شديد الموافقة لعصرنا هذا الذي تزعزعت فيه أركان كل قديم مألوف . فان روح الحرية العامة التي بها يمتاز هذا العصر قد تطرقت الى المرأة . فتراها اليوم تطالع الصحف وتحضر التمثيل وتسمع كل ما يقال حولها وترى كل ما يجري أمامها ، وبعبارة وجيزة انها تتنشق بحكم الاضطرار جو العصر الحاضر بكل ما فيه من العناصر الصالحة والفاسدة . وسواء أرضي الرجل بهذه الحال ام لم يرض فقد أصبح من المتعذر اليوم استلاب

المرأة حريتها . وانما السهل الميسور تدريبها على استعمال تلك الحرية بالحكمة والبصيرة فلا خلاص لنا ولها الا بجعلها رزينة رصينة حتى تصبح رشيدة نفسها

هذه حقيقة لا تقبل نقضاً . ولئن تحسر بعضنا على انقضاء الزمن الغابر فليس في استطاعتنا اعادته . على اني لست من الذين يتحسرون على الماضي — وسأبين سبب ذلك بعد . والجملة انه ينبغي تربية المرأة بنفس العناية الممنوحة لتربية الرجل ، ولسنا نريد بذلك أن تكون التربيتان متماثلتين

ان من الخطأ عد المدنية كأنها من صنع معشر الرجال وحدهم . فالنساء — حتى متى يخضعن لنا وفي حين نحكمهن ونتحكم بهن — صاحبات تأثير شديد في الهيئة الاجتماعية . وقد اصاب شريدان عين الحقيقة في قوله : « النساء يحكمننا فلنجعلهن كاملات . فكلما زدناهن نوراً زدننا استنارة . فعلى تهذيبهن تقف حكمتنا » . أجل ، انه لمن الغريب ان يكون الرجل قد تعامى عن مصلحته واساء فهمها الى حد ان اهمل تربية تلك التي تحمل اسمه وتربي اولاده وتتصرف بشرفه

فهل من يجهل انه من المحال على الرجل ان يفصل بين شرفه وشرف امرأته ، وان يحتفظ بمقامه اذا لم تحتفظ هي بمقامها ، وان يكون عالي الرأس اذا كانت خافضته ، وان يقوم بكل الواجب عليه اذا لم تعنه عليه بعطفها وحسن معاملتها ؟

واذا صح ذلك في الحياة الفردية فلا ريب في انه ينطبق على الحياة العمومية ايضاً . قال فنلون : « ان الرجال — وان كانوا

اصحاب السلطة السياسية ـ لا يستطيعون بقراراتهم توطيد اي اصلاح ما لم تعنهم النساء على تنفيذه» . وما ذلك كما قال كوندورسيه « الا لأن الرجال يصنعون القوانين والنساء يصنعن العادات والاخلاق» . ولله در ادجار كينه القائل : « . . وهكذا تشترك النساء مع الرجال في تكوين الجماعات . فان احضانهن لا تحمل الاطفال فقط بل تحمل الشعوب » . لذلك يجدر بنا ألا نقنع بتربية النساء تربية سطحية لأجل الزينة والزخرفة فان البلاد في حاجة ماسة اليهن : فاذا لم يكنّ رصينات لم يكن كذلك اخوتهن وازواجهن وأولادهن ، واذا لم يقمن بوظيفتهن خير قيام تعذر على اولئك اتمام ما هو مفروض عليهم نحو قومهم و بلادهم

وعلى المرأة في المقام الاول ان تدرك شأنها في حياة المنزل وان تبذل جهدها لكي يسود فيه السلام والنظام والحبور وكل ما يقرب ويجذب وما يجعل الاسرة متحدة سعيدة شريفة . هذه هي على الخصوص وظيفتها الاجتماعية ، تلك الوظيفة الطيبة المباركة. ولكنها لا تقوم بها احسن قيام الا اذا كانت على بينة من امرها ، حتى تعرف الواجب عليها وتدرك خطورة شأنها من الوجهة الاجتماعية ، فترى الوطن خلف العائلة والجامعة الكبرى خلف الجامعة الصغرى

لقد اجمع الناس اليوم على ضرورة تهذيب الشبان تهذيباً جدياً متيناً ، حتى يصبحوا خدمة صالحين للوطن . على ان ذلك لا يتأتى لنا ما لم تربَّ البنات ايضا ليكنّ زوجات وأمهات صالحات لتلك الناشئة . فما اعظم العون الذي يجنيه العامل في الحياة العامة

متى كان بجانبه امرأة نيرة تدرك معنى الواجب والخدمة والوطن !

فالنساء كالرجال يجب أن يقوى فيهن الشعور بالمسئولية وروح التعاون حتى يتم ائتلاف الطبقات الاجتماعية ويخيم السلام. ولست تجد مسألة من المسائل الخطيرة اليوم - وأولها حقوق مسألة المرأة - يستطيع الرجل ان يبت فيها وحده ، بل يتحتم عليه استشارة المرأة واستمالتها الى جانبه. والا فالنزاع يكون كريهاً ومنهكا لقوى الفريقين . وما عسى ان يكون أمر جماعة لا يصون النساء فيها غير سطوة الرجال ؟

انه ينبغي تربية البنات لا لفائدتهن فقط بل لفائدة الوطن والجمعية البشرية ، سواء في ذلك بنات العامة وبنات الخاصة . ولا يجوز عد المرأة - من اي الطبقات كانت - مخلوقا للزينة والزخرفة فقط . فذلك يحط بجدارتها وسعادتها كما يخل بوظيفتها الاجتماعية

ولقد ادرك المعنيون بأمر مستقبلنا انه يتعذر علينا اصلاح عاداتنا واخلاقنا من غير معاونة النساء . فلئن كان لضعفهن وطيشهن يد في قعودنا وتقهقرنا فلا نجاة لنا الا بتربية المرأة التربية الصالحة المتينة وانماء شعورها وفكرها وارادتها

الفصل الثاني

حالة المرأة الاجتماعية في الماضي

قلنا ان طبائع المرأة نتيجة عاملين : حالتها الاجتماعية في الماضي ، وتكوينها الجسماني . وسندرس العامل الاول في هذا الفصل

تقلب حالة المرأة

ليس غرضنا ان نصف حالة المرأة وتقدمها المطرد منذ اقدم الازمنة الى هذا اليوم ـ تفصيلا بل ولا اجمالا . لاني ارى هذا المسعى عديم الفائدة فضلا عن انه متعذر التحقيق . وذلك لسبب جوهري وهو اني كلما تقدمت في الحياة ضعف اعتقادي بارتقاء عام متواصل ، ولا سيما فيما يخص البشر . فالارتقاء ـ حسب قول ليبنتز ـ لا بد ان يتخلله هبوط وتردد

لنأخذ مصر مثلا : نستدل على حالة المرأة المصرية القديمة مما جاء في مؤلفات الاقدمين التي وصلتنا ومن الآثار والرسوم الكثيرة التي استكشفت حديثاً . فانه يؤخذ منها جميعاً ان المرأة كانت رفيعة الشأن . وشتان بين حالتها في ذلك الزمن وحالتها اليوم : فقد كانت تشتغل في مهام المنزل وتصنع المنسوجات وتشارك الرجل في لذاته فتجالس بجانبه في الولائم والاحتفالات الدينية . فاذا كانت شابة تزينت بالحلي والازهار وابهجت المجتمعات بجمالها وغنائها واذا كانت هرمة نالت ـ كالاب ـ اكرام اولادها وتبجيلهم . فكنت

اينما ذهبت تجد المرأة في مستوى الرجل ، ويظهر ايضا انه كان لها وظائف كهنوتية خاصة بها . فبعد هـذا الوصف لا نتردد في قولنا ان مكانة المرأة المصرية في هذا العصر دونها في تلك العصور ومن ذلك نرى انه يتعذر علينا التسليم بارتقاء شامل مستديم

على انه سواء أكان ثمت ارتقاء أم لم يكن فلا غنى لنا عن درس حالة المرأة في الازمنة السالفة وفي المدنيات الغابرة لتستجلي ما كان من تأثير تلك الحالة في خلقها على وجه الاجمال

قياس الرقي

من هذا الدرس يتبين لنا انه كلما تقدمت جماعة في ميدان الحضارة زاد التخصص في الاعمال بين رجالها ونسائها . واقل ما يكون هـذا التخصص في احط الجماعات البشرية . ففي القبائل المتوحشة تكاد الاعمال تكون مختلطة بين الجنسين : فترى المرأة تصيد مع الرجل وتحارب مثله وتعاني ما يعانيه من المشاق والاهوال . ويرجح ان القبائل البشرية في اول عهدها عاشت جميعاً على هذه الصورة ، ثم تميز بعضها بالتدريج من ذلك الخواء الاجتماعي وتقدم في سبيل العمران ، في حين ان البعض الآخر ظل على تلك الحالة المختلطة

ولعل الزواج ـ حتى في احط صوره وابهمها كدوري تعدد الازواج وتعدد الزوجات ـ كان بدء التميز في ذلك الخواء . ثم ان هذا التميز لم يلبث ان ازداد وضوحا فتقسمت الاعمال شيئاً فشيئاً وتخصص الجنسان في اعمالهما ولا سيما بعد استقرار الزواج على

ارقى صوره ـ نعني زواج رجل واحد بامرأة واحدة . فقد ثبت المرأة في وظيفتها المنزلية واقرها على ادارة مملكتها البيتية ، في حين اتاح للرجل ان يعمل في الخارج للارتزاق بالغزو او الصيد او الزرع او غير ذلك من الاعمال التي تميزت تدريجاً عن اعمال النساء

بل ان هذا القياس ـ قياس التمدن بدرجة التخصص ـ يصح اعتماده ايضاً للمقارنة بين الدول الحديثة . فاننا اذا نظرنا الى الامم الاوربية الحاضرة ، او الى اهل مقاطعات مختلفة في الامة الواحدة، وجدنا ان ارقاها في الحضارة والمدنية ابعدها في تميز الجنسين الواحد عن الآخر واكثرها تقسيما للوظائف والاعمال بينهما . والعكس بالعكس . ففي المدن الغربية الكبرى حيث يبلغ الرقي اعلى درجاته تجد التخصص والتفارق في اتم صورهما . اما في المزارع والحقول فالحال بخلاف ذلك اذ تجد اوجه الشبه كثيرة بين الرجل والمرأة في الاعمال والعادات والاخلاق بل في المظهر الجسدي ايضا

الا اننا نرى احياناً في ارقى الجماعات البشرية، وفي اقصى مابلغه الترفه والتمدن ، نوعا من المعيشة تكاد تمحى فيه الفروق بين الجنسين. اذ تشترك النساء في مهام الرجال وملاهيهم ، كما أن هؤلاء يشاركون اولئك في تخنثهن ورخائهن . فتلك المعيشة المخالفة لسنة الطبيعة ليست الا نذيراً بالتقهقر والانحلال الاجتماعي

على ان اختلاف الاعمال لا يدل على الارتقاء الا اذا رافقه تساو في المقام ، بحيث لا يكون احد الفريقين مستبداً للاخر ،

بل يتعاونان كل حسب قدرته في بلوغ الغاية المشتركة بينهما ، وهي سعادتهما وتربية اولادهما . ولا ريب في اننا اذا درسنا حالة المرأة بانصاف حكمنا بان الرجل ما برح يعدها وسيلة لا غاية بحد ذاتها ، مما حمل المرأة على التخلق باخلاق خاصة تطلبها الرجل . فاضيفت بذلك فروق جديدة الى الفروق الناشئة عن تقسيم العمل بين الجنسين. ويكفي ان نلقي نظرة اجمالية الى حالة المرأة في الماضي لنتيقن من صحة ذلك

الاستشهاد بالقوانين

وينبغي لنا ان نميز بين العادة والقانون : فان العادة تتقدم القانون ونعني بذلك ان القوانين ليست في الغالب الا تقريراً للعادات المصطلح عليها — وان لطفتها وهذبتها في بعض الاحيان . ولما كنا لا نعرف الا القليل عن العادات المألوفة عند الاقدمين (وذلك القليل لا نكاد نعرفه الا بواسطة آثارهم الادبية) فسنعتمد على القوانين المدونة في درس حالة المرأة ، ولا سيما ان العادات كثيراً ما كانت تتغير بين عصر وعصر بل بين طبقة وطبقة . اما القوانين فمعلومة ثابتة يستطيع الانسان ان يدرسها مباشرة . فتلك خير الطرق في نظرنا لمعرفة حالة المرأة في الازمنة السالفة وعند الشعوب المختلفة بشيء من الدقة والضبط

على انه خليق بنا قبل ذلك ان نشير الى ان المرأة — حتى في احط الجماعات البشرية — تحرك في الرجل بجمالها وجاذبها عاطفة « الحب » ، وهي اسمى عاطفة لديه كما انها في الغالب مصدر معظم

عواطفه الطيبة . مما يحمله ـ حالما يجوز دور الحيوانية الصرفة ـ على معاملتها بشيء من الرفق والحنان . وهو ما حدث في جميع الازمنة والامكنة ، ولو بصفة وقتية عرضية

الهند

ان حضارة الهند القديمة كانت على الارجح منبت الحضارتين اليونانية والرومانية . ولا ريب في انها قد طبعتهما بطابعها في شان المرأة كما طبعتهما به في سائر الشؤون . فانك تجد في شريعة مانو بنداً يتلخص فيه نظر الاقدمين الى المرأة وهو : « المرأة تابعة لوالدها في طفولتها ، ولزوجها في شبابها ، فاذا مات زوجها تبعت ابناءها ، واذا لم يكن لها ابناء تبعت اقارب زوجها ، لانه يجب ألا تترك المرأة لنفسها في حال من الاحوال »

اليونان

هذه حالة المرأة اليونانية أيضاً . فقد كانت بمنزلة القاصرة طول حياتها لا تملك أمر نفسها ولا تستطيع ان تتصرف في شؤونها. فلم يكن لها بد من سيد يعنى بأمرها : وهو اما والدها اذا كانت فتاة ، او زوجها اذا تزوجت ، او ابنها او أقارب زوجها اذا ترملت . وقد كان للزواج عندهم غرض واحد وهو حفظ الاسرة . فلم يكن لذلك بين الزوجين رابطة معنوية الا بالقدر الذي كان يشاؤه الرجل ، كأن هذا الامر موقوف على ارادته وحده

فاذا كان الرجل طيباً رقيق الشعور أحب امرأته واكرمها وعاملها باللين ، بل قد تتغلب عليه في بعض الاحوال وتتحكم به متى كان ضعيفا . فذلك انما يقف على الامزجة والعادات . وعلى هذا يجوز لنا ان نسلم بصحة المشاهد العائلية الصالحة المرسومة على بعض القوارير اليونانية القديمة ، وان نصدق وصف كزينوفون الكاتب اليوناني للحياة البيتية الهنيئة في عصره . ولكن ذلك كله ليس مدعما باوامر الشريعة اليونانية ونواهيها . والحقيقة ان المرأة لم تكن عند سواد اليونانيين الا بمنزلة « أم الأولاد » فقط. او كالمراقبة الامينة على الدار وما فيها . ولم تكن المسافة كبيرة بينها وبين عبيد زوجها . فانها لم تتزوجه مختارة بل زوجوها من غير استشارتها . واذا لم تلد له أولاداً او لم ترق في عينيه طلقها بسهولة في حين انها لا تستطيع تطليقه الا باقتحام الصعاب — على فرض انها تجرأت وطلبت ذلك . وللرجل أيضاً — وهو في قيد الحياة — ان يهدي امرأته بموجب وصيته الى اي صديق يختاره ، ولا بد لها من تسليم نفسها متى حكم عليها بذلك . ثم ان المرأة لا تستطيع ان تبيع لحسابها او تشتري بقيمة تزيد على خمسين ليتر شعير ، فضلا عن انها لا تستطيع القيام بأي عمل شرعي . ولا عبرة بقول تميستوكل المأثور : « ان ولدي اقدر اليونانيين : فاني احكم على اليونانيين ، وأمه تحكم عليّ ، وهو يحكم على امه »

والجملة انه لم يكن للمرأة سلطة الا بقدر ما كان يسمح الرجل. هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها . وقد حدث ان الرجل كثيراً ما منح معشوقته (غير الشرعية) — التي كان لها من طلاء تربيتها

وبراعتها في الحديث واستقلالها بعاداتها ما يجذبه ويأسره — اكثر مما منح امرأته الشرعية المنزوية في بيتها مع خادماتها ، وهي تكاد تشبههن في جهلها وقلة صقلها . فكأن المرأة كانت على وجه الاجمال احدى اثنتين : خادمة او خليلة

على ان ذلك التمييز لم يجاوز قط حداً معلوماً . فقد كانت المرأة في نظر الجميع — وفي مقدمتهم الفلاسفة — مخلوقاً ناقصاً ليس له من الفضائل الا ما كان من قبيل الطاعة والخضوع . وهذا هو رأي ارسطو الصريح فقد قال : « ليست حكمة الرجل كحكمة المرأة . . . فان الطبيعة عينت الحالة الخاصة بالمرأة وبالرقيق » . وكيفما قلبنا المسألة وجدنا ان هوة عميقة كانت تفصل الجنسين . ومن السهل بعد ذلك ان ندرك السبب الذي كان اليونانيون من أجله يغتبطون لدى ولادة الذكر فيبشرون الاصدقاء بأكليل من ورق الزيتون يعلقونه على باب المنزل

رومة

اما في رومة فقد قال كاتون الروماني جملة (اوردها تيت ليف) تلخص لنا رأي الرومانيين في هذا الموضوع وهي قوله باللاتينية: « Nunquam exuitur servitus muliebris » اي ان نير المرأة لا يخلع

ففي رومة كما في اثينا — بل اكثر — كانت المرأة تحت الوصاية من المهد الى اللحد . وللتعبير عن حالتها هذه كانوا يقولون انها « in manu » اي في اليد . فقد كانت طول حياتها تحت سلطة

سيد : وهو اما الأب او الزوج او الابن او قريب الزوج. ولم يكن الرومانيون مع خشونتهم وقسوتهم ليخففوا من صرامة القانون بهذا الشأن . فاذا اصاب المرأة عندهم شيء من الاحترام فما ذلك الا لكونها ام الأولاد وخفيرة الأماكن المقدسة في المنزل . اذ لم يكن الزواج الا وسيلة لاستمرار العائلة وعبادة الأسلاف . وقد كان للرجل ان يقتل امرأته بيده اذا ارتاب في سلوكها كما كان له ايضاً ألا يعترف بأولادها

ولكن المرأة الرومانية التي كانت بمقام الرقيق لم تلبث ان اعتقت لما استرخى سيدها . بل لقد بلغ الرخاء والفسق بين الرومانيين مبلغا هائلا حتى اصبح ساسة رومة ولا همّ لهم الا ملافاة ذلك . على انه ليس ابلغ من تلك الحالة نفسها للدلالة على الجحيم الذي تهبط اليه المرأة — ان لم تدرب على احترام نفسها وتحمل تبعة اعمالها — حالما تفك الاغلال التي تأسرها . فليس الاستقلال المنشود اباحة الفسق والانغماس في المفاسد وانما يتأتى عن طريق الكرامة والاحترام المتبادل

لا يخفى ما كان للقانون الروماني من الاثر العظيم في مدنية الغرب فقد اتخذته معظم الدول الاوربية ولا سيما اللاتينية منها اساسا لنظامها الاجتماعي . ولا تزال آثاره بادية في حكم الزواج المعروف عند الغربيين فانه مستمد في الغالب من القانون الروماني

النصرانية

كان للنصرانية يد في رفع شأن المرأة وتخفيف الحيف الواقع

عليها ـ ان لم يكن من طريق المباشرة فمن قبيل التهيئة . على ان النصرانية قد ترددت احيانا في اعترافها للمرأة بالمقام الجدير بها . فانها شديدة الارتباط بالديانة اليهودية من جهة وبالحضارة الرومانية من جهة اخرى : وقد رأينا مكانة المرأة في رومة ، وانها لم تكن بأفضل منها عند اليهود الذين عدوا المرأة دون الرجل بمراحل . ولا يخفى أن مجمع ماكون في القرن الخامس للميلاد بحث في هل للمرأة نفس كالرجل ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالايجاب الا فيما يخص مريم العذراء والدة الله . ثم ان آباء الكنيسة وقديسيها كثيراً ما اهانوا المرأة لكونها تجربة للرجل ومجلبة للخطيئة . ناهيك بانه ليس للزواج في نظر الكنيسة ـ وبالزواج وحده تتم للمرأة غايتها من الحياة ـ ذلك الشأن الذي يستحقه ـ وان يكن معدوداً من الاسرار الكنسية ـ فان العزوبة عندها افضل من الأمومة

كل ذلك ليس من مصلحة المرأة في شيء . وانما قلنا ان النصرانية ساعدت على رفع شأنها بمعنى انها اذلت الرجل وحطت من كبريائه وجعلته نظير المرأة وعدته موصوما مثلها بالخطيئة الاصلية لا خلاص له الا بالتوبة . ثم ان الزواج الكنسي لايحل والامانة من واجب الزوجين على السواء . وبعبارة أخرى انهما يتساويان بازاء الواجب وشروط الخلاص

فرنسا والامم الغربية (١)

اما الغاليون (وهم سكان فرنسا الاصليون) فقد كانت المرأة عندهم وضيعة ذليلة . فالى الرجل كان يرجع امر حياتها او موتها ، كما انه كان له ايضاً حق تطليقها متى شاء . على ان حالتها تحسنت بالتدريج . فلما رحل قيصر القائد الروماني الى تلك البلاد كانت العروس تجلب معها « دوطة » فيضيف الرجل اليها مبلغاً معادلا لها . وفي ذلك ضرب من المساواة بين الفريقين — ولو في الظاهر

كذلك كان الامر عند الفرنك وغيرهم من الاقوام الذين نزحوا الى فرنسا . فان المرأة في اول عهدهم كانت تشرى كما يشرى المتاع . ولكن ما لبثت تلك العادة ان اضمحلت . حتى انه في زمن تاسيت المؤرخ الروماني لم يبق لها الا اثر ضئيل في تبادل الهدايا بين العروسين كأن في ذلك رمزاً عن المساواة . ولعل الهدايا المألوفة في الافراح اليوم من بقايا تلك العادة . والجملة ان المرأة الفرنكية لم تكن ملكا لزوجها يتصرف بها كيف شاء . بل كانت

---

(١) لم يذكر الكاتب شيئاً عن المرأة العربية . على ان حالتها لم تفضل حالة شقيقاتها ولا سيما بعد تعميم الحجاب . قال جرجي زيدان : « كانت المرأة العربية في أوائل الاسلام مثال الانفة واستقلال الفكر وقوة العقل والنفس في حين كانت المرأة الغربية في غياهل الجهل والذل . فلما استبحر عمران المسلمين واشتد الحجر على المرأة في اثناء الاجيال الاسلامية الوسطى انحطت أخلاقها حتى صارت الى ما يشبه المروي عنها في الف ليلة وليلة . فان هذه القصة الخيالية مع ان فيها مبالغات كثيرة تمثل الآداب الاجتماعية في تلك العصور المظلمة وتدل على سوء ظن الرجل في المرأة او سوء الظن المتبادل بينهما . وتدل دلالة صريحة على ان الحجاب لا يمنع وقوع الفساد والخيانة »

شريكته لها املاكها الخاصة ولها ايضاً ان ترث اقرباءها بل ان ترثه هو اذا توفي قبلها ، كما انها في العصور الاولى كانت شريكته في الغزو والحرب

من تلك العوامل جميعاً ومن مقتضيات الاحوال نشأت المدنية الفرنسية في القرون الوسطى . ولا يخفى ان النظام السائد في ذلك الزمن كان نظام الاقطاعات féodalité وهو انما يقوم على تأدية الخدمة العسكرية . فكان مفروضاً على كل اقطاعة تجهيز عدد معين من الجنود . ولذا لم يبح للنساء امتلاك الاقطاعات في اول الامر . زد على ذلك انه كان للاولاد الذكور امتياز على البنات في امر الوراثة كما انه كان للبكر امتياز على اخوته ، بحيث كان امتلاك الاقطاعة ينتقل في الذكور فقط من البكر الى البكر . ولئن اشتهر ذلك العصر بصفات الفروسية وبما كان للمرأة فيه من الاجلال والاكرام في المجالس والاحتفالات العمومية فان ذلك كله لم يكن الا غشاء ظاهرياً . وليس ادل على حقيقة حالها من نصوص القوانين وصرامتها فيما يتعلق بها . وقد شبه احد كتاب ذلك العصر نساء ايامه المبجلات المعظمات « بالهياكل المصرية الفخمة من الخارج بينما لا تجد في داخلها الا قرداً او هرة او غيرهما من الحيوانات المحنطة »

على ان العادات لطفت تلك الصرامة شيئاً فشيئاً الى زمن الثورة الفرنسية التي اعلنت المساواة بين الجنسين في المسائل المدنية (ابريل سنة ١٧٩١) . ومنها نشأت المساواة الوراثية بالغاء امتيازي البكورة والذكورة . فمن ذلك الحين اصبح لدى المراة

ما يضمن لها كرامتها واستقلالها : فاذا لم تتزوج استطاعت ان تتصرف بمالها كما تشاء . اما اذا تزوجت فانها تضطر الى التخلي لزوجها عن شيء من سلطتها . ولكنها مع ذلك لا تتزوج الا برضاها . ثم ان نظام « الدوطة » يجعل شيئا من المساواة بين الزوجين

والجملة ان سلطة الزوج تغيرت تغيراً اساسياً . فبعد ان كان مؤداها محو شأن المرأة لانها قاصرة اصبحت ترمي الى حمايتها وحماية الأسرة والأولاد مما قد تنقاد اليه بقلة اختبارها

على انه لا يزال للمتزوجة امتيازات على المتزوجة ، كان الزواج يقلل من شأن المرأة ونفوذها بوضعها تحت حماية الرجل . ولعل هذا ضروري لسلامة العائلة التي هي جرثومة الاجتماع كما لا يخفى . ومع ذلك لا يزال مجال الاصلاح واسعا في هذا الموضوع

تأثر خلق المرأة من حالتها الماضية

بقي علينا الآن ان نستخلص من هذه النظرة الشاملة ما كان من تطور خلق المرأة وفقاً لمقتضيات احوالها :

قد كان لماضي المرأة بلا ريب اثر عظيم في نفسها . اذ حملها على التخلق باخلاق اقتضتها حالتها ، غير ما غرسته فيها الطبيعة من المواهب الفطرية . وقد تثبتت فيها تلك الاخلاق المكتسبة مع توالي الاجيال . ومما زادها — ويزيدها — وضوحاً : التربية و « الانتخاب الجنسي » . فبالتربية تدرب الفتاة على السجايا

المرغوبة فيها فتقوى تلك السجايا بالتمرين ، وبالانتخاب الجنسي تنمو فيها الصفات التي تروق للرجل (اذ انه لا يتزوج الا من اتصفت بها فتتوارث تلك الصفات من جيل الى جيل وتبرز شيئاً فشيئاً ، في حين ان الصفات المكروهة تضعف وتتلاشى لاجتناب الرجل كل امرأة متصفة بها . وهذا هو المراد من قولنا « الانتخاب الجنسي »)

فما هي اذاً الصفات والسجايا التي اكتسبتها المرأة من ماضيها ؟ أما من الوجهة الجسمانية فقد اكتسبت ضعف العضلات والجسم عموماً ، وهو نتيجة معيشتها الهادئة بالنسبة الى معيشة الرجل. وأما من الوجهة المعنوية فالصفات التي برزت فيها هي : الميل الى الحياة البيتية ، والعناية بمهام المنزل ، والحياء والخوف ، والجلد والصبر ، والاهتمام بالجزئيات ودقائق الاشياء ، والسعي لاجتذاب الرجل وارضائه لان عليه يقف امرها ، والطاعة واللين بازاء رب الدار وصاحب القوة والسلطان (وذلك يجعلها تخشن الكلام لمن دونها من الخدم كأنها بذلك تثأر لنفسها) ، ومهارة عجيبة في حزر رغبته كي تسبقه الى انجازها ، وحذق في تضليله وخدعه اذا كان قاسياً (او على الاقل في اخفاء عواطفها اذا اضطرت الى ذلك) — تلك بعض الصفات التي نمت في خلق المرأة لانها كانت لازمة لها حتى تعيش مع الرجل وتحوز رضاه

وكيف نتوقع من المرأة المنزوية في دارها ان تكون لها نفس القدرة العقلية التي نالها الرجل من جراء احتكاكه بالعالم واهتمامه بالمسائل الخطيرة العمومية والخصوصية ؟ فانها ما برحت تعامل اما

بالازدراء أو بالتمليق ، وكلاهما مضر على السواء . وقد نجم عن ذلك انها عاشت في عزلة وجهل ، أو اكتفت بانماء مواهب سطحية تبهر اكثر مما تفيد. والرجال غالباً يكرهون النساء العالمات صاحبات الخلق القوي والعقل الراجح

بل كيف لا تكون المرأة نهجة طيعة عادمة الاستقلال والذاتية المعنوية مع ما تحملته من ضغط الرأي العام أجيالا طويلة — ذلك الرأي الجائر الذي يبيح للرجل كل شيء ويأبى الا أن يؤاخذها بادنى هفوة ، ذلك الرأي الذي يصفق للغاوي ولا يلوم الا الضحية؟ وهل ما يدعو الى الدهشة من تطرفها في الشر حين تجاوز حدود اللياقة ، ما زال رادعها الوحيد « ما يقوله عنها الناس » لا عقلها وشرفها وكرامتها ؟

لنكتف الآن بهذه الاشارة . ولعل لنا في ذلك ما يجعلنا أقرب الى الانصاف بازاء المرأة فنلتمس لها أعذاراً صحيحة ولا نكون ظالمين . بل اني — فيما يخصني — أرى المرأة بعد هذه النظرة التاريخية أجدر بالاجلال والاكرام . فلو خبر الرجال ما خبرته النساء من الحيف والجور ما استطاعوا أن يخلصوا بأنفسهم على افضل من تلك الصورة ! ولله در غريم القائل : « لو فكرنا في كل ذلك بانصاف ما قلنا شراً عن المرأة بل ملنا الى الاعتقاد بان فطرتها تسمو على فطرة الرجل »

وعلى كل حال لا بد لنا من التسليم بأن في المرأة قوى كامنة تؤهلها لتحسين حالها متى أتيح لها ذلك . وليس من العدل ان نشدد الحكم عليها بعد ما نالها من الظلم والاهمال على ممر الاجيال

الفصل الثالث

حالة المرأة الجسمانية ووظيفتها الحيوية

وما لذلك من الشأن في حياتها الاجتماعية

قد وصفنا بايجاز حالة المرأة في العصور السالفة وما كان لذلك من التأثير الشديد في خلقها . الا ان هـذا التأثير مع شدته قابل التعديل لان ما يحدثه الزمن قد يمحوه الزمن ايضاً

الفرق الاساسي بين الجنسين

على ان تلك الحالة نفسها ـ اي حالة المرأة في الماضي وما كان من خضوعها للرجل وتخلفها عنه في الرقي ـ كل ذلك انما نجم عن طبيعة المرأة ، اي عن تكوينها الجسماني ووظيفتها الحيوية . وقد ذكرنا سالفاً قول مودسلي ان انوثة المرأة اشد من تربيتها تأثيراً في نفسها وحياتها . فتلك الانوثة ـ اي كون المرأة امرأة ـ هي العامل الاصلي الذي ينبغي لنا درسه الآن

فلا ريب في ان انوثة المرأة تلجئها الى الخضوع للرجل لما يترتب عليها من الاحوال التي تضطرها الى الاستعانة به والاعتماد عليه ـ مع انها بذلك تؤدي أسمى الوظائف الاجتماعية

وليس ذا شأن في بحثنا ان نقف على طبائع الحيوانات للمقارنة

بينها و بين الانسان . واني ارى من العبث ما تبذله بعض النساء المستنيرات من الجهـد لاثبات مساواة الانثى بالذكر في عالم الحيوان او اثبات تفوقها عليه في بعض الانواع ولا سيما الخيل والكلاب . فمثل هذا البحث لا يجدي نفعاً ، ولا سيما فيما يتعلق بالحيوانات الداجنة التي لم ترب تربية طبيعية . بل أن تخلف الانثى غالب بين الحيوانات الوحشية . وعلى فرض اننا اثبتنا تفوق الانثى بينها فذلك لا يحتم تفوق المرأة في الجنس البشري . فانها تمتاز عن سائر الانثيات بثقل العبء الذي فرضته الطبيعة عليها . فطفلها بلا ريب أضعف من أطفال جميع الحيوانات واحوج منها الى عناية أمه ورعايتها

الفروق التشريحية

أما ما بين الرجل والمرأة من الفروق التشريحية فلم يتفق العلماء بشأنه بعد . فمعظم الفروق الثابتة لا يترتب عليها حكم ذو شأن في حين ان الفروق المشكوك في صحتها يترتب عليها أحكام خطيرة لو اثبتت . وقد سلم الباحثون الحديثون للمرأة باكثر مما سلم لها المتقدمون . على انهم متفقون جميعاً على ان المرأة انقص تكويناً من الرجل واقل جلداً واضعف مقاومة . هذا هو الوصف العام الذي ينطبق على كل اجهزتها واعضائها . واليك تفصيل ذلك :

ان قامة المرأة في جميع الاجناس البشرية اقصر من قامة الرجل وذلك منذ المهد . فالذكر يولد اكبر من الانثى ومعدل الفرق بين قامة الرجل وقامة المرأة عند اكمال نموهما نحو ١٠ سنتيمترات

ويقال مثل ذلك فيما يخص الوزن . فالفرق بين الجنسين يتجلى منذ الولادة . ومعدل زيادة الرجل من هـذا القبيل ٥ كيلوغرامات . وفرق الوزن يظهر خصوصاً في الهيكل العظمي فهيكل المرأة أخف وزناً من هيكل الرجل ـ ليس على وجه الاطلاق فقط بل بالنسبة الى وزن الجسم ايضاً . ثم ان العظام ـ علاوة على كونها في المرأة اصغر حجماً وأقل متانة (حتى من حيث تركيبها الكيماوي) ـ فان انوفها التي ترتكز عليها العضلات اقل نمواً وبروزاً . زد على ذلك ان تركيب هيكلها (نظراً لشكل الحيض على الخصوص) يجعلها اقل قدرة على الحركة والانتقال

اما عضلاتها فاضعف من عضلات الرجل . فهي دونها في الحجم بنحو الثلث كما انها دونها ايضا في النشاط . وهو ما يجعل المرأة انحف من الرجل ويجعل حركاتها ابطأ من حركاته واقل ضبطاً واحكاماً . وانما تفضل المرأة الرجل في نسيج واحد وهو النسيج الخلوي الذي تقف عليه استدارة شكلها ورشاقة جسمها. ومن الوهم الاعتقاد بان قدم المرأة التي يتغنى بجمالها اهل هـذه المدنية ارق من قدم الرجل . بل ان الحقيقة عكس ذلك لان قدمها بوجه الاجمال اكثر تسطحاً واقل التواء ، اي انها اشبه بقدم الشعوب المنحطة

واذا انتقلنا الى الاحشاء وجدنا قلب المرأة اصغر حجما من قلب الرجل واخف وزنا (٢٤٠ غراما للمرأة و٣٠٠ للرجل) وهو ما يدل على ان حجم هذا العضو ليس بنسبة ما يسعه من العواطف ! » كما قال احدهم . اما النبضات فانها اسرع في المرأة

ويزيد عددها فيها عن عـدد نبضات الرجل بما يتراوح بين ١٠ نبضات و ١٤ نبضة في الدقيقة (والحال كذلك ايضا عند معظم الحيوانات : فنبضات الاسد ٦٠ واللبؤة ٦٨ ، والثور ٤٦ والعجلة ٦٦ ، والكبش ٦٣ والشاة ٨٠) . اما دم المرأة فيختلف عن دم الرجل في قدره اولاً فانه اقل منـه قدراً ، كما يختلف عنـه في التركيب ايضا فالاملاح فيه انقص وكذلك الهيموغلوبين . ثم ان كريات الدم الحمراء اوفر في المرأة بعكس كريات الدم البيضاء فانها اوفر في الرجل

ولننتقل الآن الى الجهـاز التنفسي : ان المرأة متخلفة عن الرجل في سعة الصدر والرئتين (الفرق بينهما نحو نصف ليتر) . ثم ان التنفس لديها اسرع ولكنه انقص من الوجهة الكيماوية فالرجل اكثر امتصاصاً للاكسيجين واطلاقاً للحمض الكربوني. ولذلك تجد المرأة دون الرجل في درجة الحرارة . ولعلها كذلك لأنها اقل منه استنفاداً لهـا بسبب غلافها الدهني الذي يحفظ الحرارة من الافلات والضياع . اما جهازها الهضمي فاقل احتياجاً للطعام وان يكن احساس الجوع عندها اكثر تواتراً

وما عسانا ان نقول الآن عن الرأس والدماغ ؟ لا ريب في ان جمجمة المرأة اصغر حجما من جمجمة الرجل . وذلك الفرق يزيد كلما ارتقى الانسان في سلم الحضارة . فرأس الرجل ينمو مع تقدم المدنية في حين ان رأس المرأة لا يكاد يتاثر من ذلك . قال غوستاف لوبون : « قلما يزيد حجم الجمجمة في نسائنا المتحضرات عن حجمها في نساء العصور السابقة للدور التاريخي » . ونسبة

جمجمة المرأة في الحجم الى جمجمة الرجل كنسبة ٨٥ الى ١٠٠ . ويتبع حجم الجمجمة عادة حجم المخ فانه اصغر في المرأة واخف وزناً (يتراوح وزن الجمجمة بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ غرام في المرأة وبين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ في الرجل) . على انه ينبغي اعتبار الوزن النسبي اي وزن المخ بالنسبة الى الجسم كله لا وزنه على الاطلاق . فبهذا الاعتبار قد اختلف حكم الباحثين الا ان الرأي الغالب بينهم هو ان المرأة دون الرجل في هذا الباب ايضاً اذ ان مخها يعادل $\frac{1}{14}$ من وزنها في حين ان مخه لا يزيد على $\frac{1}{16}$ من وزنه . وهناك فرق كذلك في شكل المخ وتلافيفه (ولا يخفى ان تلافيف الدماغ هي مراكز القوى العقلية) فتلافيف المراة على ما يقولون اضعف نمواً واقل بروزاً

تلك هي الآراء الغالبة بين العلماء وليس هـذا مقام مناقشتهم في صحتها . بل ان هذه النتائج متوقفة على الاجمال ولا داعي لاستهجانها . فان ضعف التركيب الجسماني في المرأة وتخلفها عن الرجل في الوزن ووفرة الدم وحركة التنفس بل في نمو الدماغ ايضاً ـ كل ذلك ليس على الأرجح الا نتيجة معيشتها في القرون السالفة وما تحملته من الضغط وما نالها من الحيف والانزواء . فهل من العجب ان تتخلف المرأة في القدرة على الكد والعمل في حين ان قواها ما برحت هامدة ساكنة منذ اجيال بعيدة ؟ فبالاهمال تضمر الأعضاء وتنقص في الحجم والوزن والنشاط . هذا ناموس يسري على عالم الحياة باسره . ولعله يكفي لتعليل الفروق المتقدم ذكرها . ولذلك يجب عد هذه الفروق « ثانوية » :

فانها ثانوية في الاهمية كما انها ثانوية ايضاً في كونها ناشئة عن فرق اولي عظيم الشأن

وظيفة الانوثة واخطارها

وانا ذاكرون الآن كلمة عن ذلك الفرق الاساسي الذي هو مرجع سائر الفروق بين الجنسين . وهو يتجلى في قولنا ان المراة انما هي . . . المرأة ـ اي انها مكونة تكويناً خاصاً لتأدية وظيفة الأمومة التي هي كنه حياتها . فمن صفاتها التشريحية والفسيولوجية والنفسانية القائمة على هذه الوظيفة او المرتبطة بها تتكون طبيعتها الخاصة التي تميزها عن الرجل . تلك هي الحقيقة الاساسية التي تسهل علينا مهمة درس هذا الموضوع من اوله الى آخره . فان تخلف المرأة قائم عليها ، كما يقوم عليها ايضاً ما لها من مجد ومفخرة . اذ كيف لا نذكر بوقار تلك التي اتيح لها ان تكون اماً ؟ وكيف نشك في وجوب مساواتها بالرجل ؟ بل اي شيء من الوجهة الاجتماعية اهم من بقاء العائلة والأمة والجنس ؟

على ان تلك الأمومة هي بلا ريب عبء ثقيل على المرأة يعوق جهادها في هذه الدنيا . فلا غنى لها اذاً عن مساعدة الرجل وحمايته . ولكن بعض النساء يبالغن في متاعب الحمل والأمومة معتمدات على ذلك في حث الرجل على الالتفات اليهن والعناية بامرهن . فاولئك ينبغي تنبيههن الى ان تلك الوظيفة طبيعية اعتيادية وانها تؤدى على اهون الصور متى كانت المرأة صحيحة و بيئتها سليمة . ولا ريب في ان المغالاة ظاهرة في وصف ميشله للمرأة

بانها مريضة منذ سن البلوغ ، وفي عد الدكتور سيكاد لضروب الاختلال العقلي والجسدي كانها ملازمة بطبيعتها لصفة الانوثة . على انه يجوز التسليم مع هذا الأخير في قوله ان حالة المرأة العقلية عند اختلال وظيفتها الحيوية تتراوح « من الاضطراب البسيط الى درجة الجنون ، مما يدعو الى تخفيف مسؤوليتها بل الى اخلائها من المسؤولية في بعض الاحيان »

ان في حياة المرأة ـ وعلى الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢ و١٤) وفي العارض النهائي (حوالي سن ٤٥) ـ جملة أخطار تجعلها عرضة للضعف والعطب . على اننا نكرر قولنا ان تلك العوارض ـ التي ضخمتها الحياة الوخيمة في المدن الكبيرة ـ تنقضي بسهولة في الحياة الصحية المنتظمة وفي الأحوال الملائمة من الوجهتين الجسدية والعقلية . وكثيراً ما تبدي المرأة على تفاوت سنها من النشاط والصبر والجلد ما يبعث على الدهشة والاستهجان . ثم أنها متى جاوزت دور الاخطار الخاصة بجنسها تجاري الرجل في الصحة والتعمير . على ان ذلك لا ينافي قولنا ان المرأة في اجمل دور من حياتها ـ حتى أقوى النساء وارزنهن عقلا وجسداً ـ عرضة لمشاق وشدائد تتفاوت في الخطورة . فقد كتب لها ان تعرف أيام تعب وضعف تتكرر في أوقات معلومة وان تكون شديدة التأثر والانفعال من أتفه الأسباب كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والوجس

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبده للاحتفاظ بالجنس . ومن نتائجه الراهنة تعرضها الشديد للمرض والموت في سن الشباب

فانه يؤخذ من الاحصاءات أن تفوق الفتاة في قوة مقاومتها لا تلبث ان تفقده المرأة بعد اكتمال نموها فتصبح شديدة التعرض للطوارىء . وقد حسبت احدى الشركات التي تعنى بامر العمال والعاملات ان المرأة ـ حتى في سن ٤٥ او ٥٠ سنة ـ أكثر تعرضاً للامراض من الرجل بمعدل ١٥٠ للمئة ، وان وفيات النساء في هذه المدة ثلاثة اضعاف وفيات الرجال . فلله در هكسلي القائل : « ما دامت الأمومة حصة المرأة فانها حمل ثقيل عليها في ذلك السباق الذي يسمى الحياة . فواجب الرجل ان يخفف عنها ذلك الحمل او على الأقل الا يضيف اليه أثقالا اخرى فيزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة

نتائج الانوثة من الوجهة النفسانية

قد آن لنا الآن ان نخوض المبحث الخطير الذي هو غرض هذا الفصل : فما تأثير تلك المميزات الجسمانيـة في صفات المراة وأخلاقها ؟

قال سبنسر : « ان الطبيعة تقف نمو المراة باكراً كي تعدها لوظيفة الأمومة ـ كأنها تتيح لها بذلك ان تخزن قوتها احتياطاً للازمات التي تطرا عليها . فهي تقف نموها عاجلا ليتوفر لديها ما يلزمها من الغـذاء والنشاط عنـد تأدية وظيفة الأمومة »

يؤخذ من ذلك اولا ان عقل الفتاة ينضج قبل نضوج عقل الفتى . هذه حقيقة لا سبيل الى انكارها فانك اذا قارنت بين فتى

وفتاة حوالي الخامسة عشرة من عمرهما وجدت البون شاسعاً بينهما من حيث فهمهما وادراكهما ، وعلى الخصوص في الأمور الحسية الراهنة . فانها تفوقه بمراحل في امتلاك نفسها وحسن تخلصها ومعرفة ما ينبغي لها عمله في المواقف الحرجة . ومن ذا الذي لم يتح له الاعجاب بحذق الفتيات من هذا القبيل !

ولكن ذلك التفوق يعد نقصاً من وجه آخر . فما النضوج المبكر الا وقف النمو . فان الدماغ وسائر الاعضاء تبقى في المرأة دون ما هي في الرجل . وبعبارة اخرى انما تستتم المرأة نموها قبل الرجل لان ذلك النمو اقصر مدى واقرب غاية . هذه هي الحقيقة الاساسية التي عظمها اعداء المرأة واعتمدوا عليها للازدراء بها . قال شامفور : « النساء اولاد كبار جعلن للتعامل مع جنوننا لا مع عقلنا » . وقال شوبنهور : « لا يبلغ عقل الرجل تمام نموه قبل الثامنة والعشرين . اما عقل المرأة فانه يكتمل نموه في الثامنة عشرة . فكأن عقلها لا يتجاوز قط تلك السن فتراها طول حياتها ولداً كبيراً » . وهاك وصف كاتب روائي لبراعة الفتيات قال : « . . . تأتي الفتيات اشياء عجيبة في اول امرهن ولكنهن يقفن فجأة . . . فلا يتقدمن خطوة بعد ذلك وليس من يدري السبب » . على اننا ندري الآن السبب الحقيقي لهذا الوقوف . فما ذلك الا لانهن يسرعن في التحول نساء . ولم تشأ الطبيعة ان يجارين الرجل في جميع مواهبه الذهنية كما انها لم تمنحهن ذقوناً اصلاً

على ان ذلك لا يمنعهن من تحقيق غاية الجنس البشري بطريقتهن التي جعلن لها كما يسعى الرجل للغاية نفسها من وجهته

الخاصة . ومن الحماقة عد ما تقدم دليلا على ان المرأة ليست الا رجلا ناقص النمو . على اننا ـ وان هزأنا بالمرأة لانها ولد طول حياتها ـ لا بد لنا من التسليم بأنها تبقى مع ذلك احمى من الرجل واحر قلباً واشد اندفاعاً واغزر احساساً . ولعل ذلك ما يعلل قابليتها العظيمة للتأثر والانفعال وهي ميزتها البارزة فيها ـ وان اخفت ذلك متى اقتضته مصلحتها

ان حفظ النوع الذي هو غاية الطبيعة لا يتم بالوظائف والاعضاء المعدة لذلك وحدها ، بل يستدعي ايضاً وجود غرائز خاصة تعين على بلوغ تلك الغاية . فمن هذا القبيل نجد غريزة الاب دون غريزة الام نمواً وبروزاً . فمن طبيعة الرجل الحماية والاجارة بوجه عام . اما المرأة فان عطفها وكنفها وجناحها محصورة على الخصوص في عنايتها بالطفل الضعيف الذي تربطها به روابط وثيقة . اضف الى هذه الغريزة الصفات العقلية المرافقة لها كادراكها بالفطرة احساس الطفل وحزرها لحاجاته . والجملة ان سيطرة الامومة على حياة المرأة تبلغ مبلغاً عظيماً حتى لقد قيل ان المراة كلما احبت حباً شديداً مازج ذلك الحب شيء من عواطف الام

ولكن المراة القادرة بازاء الطفل ضعيفة بازاء الرجل . ولا بد لها من الاحتماء تحت جناحه . وليس من العسير استكشاف سبب ذلك . ففي نزاع البقاء لم يفز من النساء الا من حزن المواهب والصفات التي من شأنها اجتذاب الرجال وحملهم على اعانتهن واجارتهن . ولذلك ما برح همُّ المرأة ارضاء الرجل والعناية بما

يسره ومنافسة زميلاتها في هذا المضمار . فكل هذه الصفات تعينها على البقاء وتنيلها الحظوة في عيني سيدها

ومن جهة أخرى ان صاحبات الخلق الاستقلالي الحر ـ اللواتي لم يرضخن لسلطة الرجل ولم يتحملن استبداده ـ لم ينجحن في استمالته اليهن ولم يفزن في مضمار الحياة . فكأن الطبيعة تنتخب الصفات التي من شأنها توافق الجنسين فتنمو تلك الصفات وتبرز بالتدريج في حين ان الصفات الآئلة الى خلاف ذلك تتلاشى شيئاً فشيئاً ـ وهو المراد « بالانتخاب الجنسي » الذي هو ضرب من ضروب الانتخاب الطبيعي

ثم ان المرأة ما فتئت تترقب عواطف الرجل لتستطلع ما به من رغبة وميل لان على معرفة ذلك يتمف فوزها ونجاحها . فمن الطبيعي اذاً ان تنمو فيها مقدرة التنبؤ برغائبه وامياله والتفطن لكل ما يسره و يرضيه . فلكم توقفت سعادتها على الاستدلال، من حركة أو نغمة او اشارة ، على ما يجيش في قلبه من غضب او قسوة أو عطف او سماح ! تلك هي ميزتها العجيبة التي تبلغ في المتحضرة ـ بالتهذيب والتمرين ـ دقة فائقة الوصف

ومن الاخلاق الناشئة ايضاً عن حالة المرأة الجسمانية وضعفها الطبيعي تبجيلها للقوة واعجابها بها . على ان نوع القوة الذي تميل اليه يختلف باختلاف وسطها وتربيتها ودرجة حضارتها . ولكن مما لا ريب فيه ان تحلي الرجل بضرب من ضروب القوة الجسدية او المعنوية يبهرها و يستميلها . وليس من العدل تأنيب المرأة على ميلها هذا فقد نشأ فيها واتضح بالتدريج لانه كان شرطاً لازماً

لبقائها هي واولادها . وانما يكفي ان يتحول اعجاب المرأة الراقية المتهذبة من الجهة الجسدية الى الجهة المعنوية . ولعلنا نجد في هذه الغريزة ما يعلل لنا قدرة بعض النساء على تحمل المعاملة الرديئة ، بل قد تتعلق المرأة احياناً بالرجل الذي يستبد بها و يسيء التصرف معها وتفضله على الخامل الرخو الذي يلاطفها على الدوام ، ولا سيما اذا كانت شدة الاول ناشئة عن غيرته عليها وكان لين الآخر نتيجة عدم اكتراثه بها

وقد نسب هربرت سبنسر الى اعجاب المرأة بالقوة نمو شعورها الديني . فما برح هذا الشعور — في كل زمان ومكان — اظهر في المرأة منه في الرجل . على أني اميل الى الاعتقاد بانه انما ينجم عن دقة احساسها وشدة تأثرها او قل ان شئت عن احتياجها الى الاسعاف من الوجهتين المادية والأدبية وتعودها الخوف والتأمل في حين لا يتاح لها العمل بنفسها مباشرة . هذه كلمة وجيزة في الموضوع وسنعود اليه بعد . على انها كافية لتبين لنا ان العاطفة الدينية متأصلة في قلب المرأة وليست من ثمار التربية كما يدعي البعض

ومما يترتب على غريزة الطاعة والانصياع الاصيلة في المرأة احترامها للسلطة في جميع ظواهرها وحرصها على كل ما كان قديماً مألوفاً . فالمرأة في الغالب هي حافظة التقاليد البيتية والاجتماعية . ثم انها في المسائل السياسية اكثر ميلا من الرجل الى الحكومة الشديدة الصارمة . ولا شك في ان هذه المميزات ناشئة عن تبعيتها الطبيعية المتوارثة جيلا عن جيل . فانها تخضع طوعاً للسلطة

العمومية وقلما تسعى في التنصل من تلك السلطة . بل كيف تكون حرة المنزع في هذا الشأن حالة كونها لا تدرك معنى الحق الصرف والعدل المطلق ، وهي لم تنل نعمة أو تجزَ خيراً في هذا العالم الا بفضل الرجل الذي تجتذبه وتستميله . فانما قانون الحياة في نظرها هو الاعتماد على الحظوة والعطف لنيل كل مرغوب

نظرة الى المستقبل

لعلنا قد تقدمنا الآن شوطاً بعيداً في درسنا هذا . فقد رأينا العامل الاساسي الذي جعل المرأة خاضعة للرجل وكيف تطورت اخلاقها من جراء ذلك . ففي الفصل السابق شاهدنا المرأة في حالتها الوضيعة على ممر الاجيال . وفي هذا الفصل احطنا بمنشأ ذلك الحدث الاجتماعي وادركنا سببه الطبيعي الفسيولوجي . فقد تبين لنا الآن لماذا خضعت المرأة للرجل وايضاً لماذا يتحتم عليها ذلك الخضوع الى حد . والا انقلب النظام البشري رأساً على عقب . بل لو اراد البشر خلاف ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة ، في تركيبها وخلقها ومزاجها ، ما يحول دون تنفيذ مرادهم

ان خضوع المرأة امر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته ، ولكنه طبيعي متى عدله تقسيم العمل ولطفته روح العدل والانصاف . بل ليس في ذلك الخضوع اهانة او مذلة اذا نشأ عن تفاوت ضروري للتآلف والتوافق وكان اساساً لوحدة العائلة — وهي الجرثومة البدائية في تكوين الجمعية البشرية — كما تتآلف الاعضاء وتتوافق في خدمة الجسم البشري

فاذا اتخذت الحركة النسائية غير هـذه الوجهة بدعوى طلب المساواة المطلقة بالرجل فانها انما ترمي بذلك الى ملاشاة العائلة التي هي ركن الاجتماع والتي ليس للمرأة خارجها سعادة باقية

فعلينا اذاً التسليم بما دبرته الطبيعة مع تجنب ما يثقل حكمها ، بل مع السعي في تعديل ذلك الحكم بقدر المستطاع — وسنرى انه لا يستهان بذلك القدر من التعديل . فمتى عرفنا الحدود التي وضعتها الطبيعة للمرأة استطعنا ان نرسم لتربيتها خطة ترفعها وتثقفها في آن واحد وتضمن لها انماء مواهبها التي أهملت زمناً طويلا من غير ان ينقص شيء من رونقها وجمالها . ففي الامكان رفعها الى مستوى الرجل في كرامتها وتعقلها بحيث تصبح اجدر باحترامه من غير ان تكون اقل جدارة بحبه . هذا ما ينبغي لنا عمله متذكرين على الدوام ما في المرأة من ضعف وعيب — لا لتأنيبها وتوبيخها — بل لاصلاح امرها جهد الطاقة . فنعطيها ما ينقصها من غير ان نحرمها مما لديها . وينبغي ألا نخشى تقويتها . فالرجل الذي يعمل لذلك انما يعمل لفائدة العائلة والمجموع بل لفائدته هو ايضاً . وانه لمن الجهل وصغر النفس ان يرى في اعلاء شأنها حطة من شأنه ، كما انه من الخطأ والحماقة ان تتناسى هي من جهتها حكم الطبيعة عليها . فلقد جعلت لها حصة من الحياة ليست دون حصة الرجل جمالا وبهاء على شرط ان تكون مختلفة عنها . فالتساوي الممكن بينهما انما يأتي من هذه الجهة . واذا طلبت مساواة اخرى فانها تحرم نفسها تلك المساواة الوحيدة الميسورة لها فتذهب ضحية طموحها الى المحال . وكأنها بذلك تقتل الحب في قلب الرجل وهي تطالبه بما تظنه عدلا

الفصل الرابع

الفتاة

مقابلة بين اخلاق الجنسين قبل سن البلوغ

الغرض من هذا الكتاب درس طبائع المرأة في اجلى مظاهرها اي فيما بين نهاية الطفولة وبداية الشيخوخة ، او بعبارة اخرى من اول سن البلوغ (من ١٢ الى ١٤ سنة) الى آخر عهد اليئوس (من ٤٥ الى ٥٠ سنة) . فان الفرق بين الرجولة والانوثة يكون كامناً قبل هذه المدة كما انه بعد انقضائها لا يبقى منه غير التذكار

تختلف سن البلوغ باختلاف الشعوب فانها تقع حوالي السنة العاشرة في مصر في حين انها لا تقع في اسوج قبل الثامنة عشرة . وكلما تأخرت تلك السن طال عهد الجمال والاثمار في المرأة . فبينما لا يزيد ذلك العهد على عشرين سنة في البلاد الحارة يبلغ في الاقطار الشمالية اكثر من ثلاثين . فمن الخطأ اذاً ان نتمنى ابكار البلوغ . بل ينبغي ان نبذل جهدنا لاجتناب كل ما من شأنه تعجيله — وان يكن ما نستطيعه في هذا الباب يسيراً

ويجدر بنا الآن ان نقف هنيهة للتأمل في حالة الفتاة قبل سن البلوغ اي قبل ان تبرز فيها صفات المرأة التي نرمي الى درسها في هذا الكتاب . ففي ذلك فوائد جمة للمربين . اما زمن الشيخوخة —

اي الزمن الذي تمحى فيه تلك الصفات ـ فيمكننا ان نغض النظر عنه اذ لا علاقة له قريبة بدرسنا

الفروق الاصيلة والفروق المكتسبة

لئن كانت الفروق العقلية والمعنوية طفيفة بين الفتى والفتاة قبل سن البلوغ فانها حرية بالدرس . ويحسن في هذا المقام ان نشير الى ان كلمة « ولد » في معظم اللغات تطلق على الذكر والانثى ـ كأن ليس بينهما فرق يجدر ذكره . والحقيقة ان الطبيعة قد ميزت منذ المهد عقل الرجل وقلبه من عقل المرأة وقلبها . ولا يلبث هذا التمييز ان يزداد وضوحاً كلما تقدما في السن . على ان التربية البيتية التي ينالها الاحداث تضخم في الغالب ما بين الجهتين من الفروق . فاننا نعامل الغلام كأنه رجل ونكاد نعد الصبية امرأة . وذلك يتجلى في ملابسهم وألعابهم وسائر امورهم فمن شأنها جميعاً تضخيم الفروق التي اقامتها الطبيعة بين الصبي والصبية او اضافة فروق جديدة اليها . حتى لقد اصبح من الصعب فصل المميزات الاصيلة الطبيعية من المميزات الطارئة المختلفة . فاننا ندفع الصبي منذ السنة الخامسة من عمره الى جهة الرجولة كما اننا نستحث في الصبية صفات الانوثة قبل اوانها . واذا قارنا بين العابه والعابها اتضح لنا ذلك باجلى بيان فاننا نضع بين يديه الطبول والزمور والبنادق والسيوف والمدافع والعساكر والمراكب الخ ... في حين اننا لا نعطيها الا الدمى (العرائس) والافرشة وادوات الطبخ ولوازم الخياطة والخزائن والمرايا والاشرطة والحلي ونحو ذلك

على انه ليس من الجوهري في نظرنا الفصل بين صفات الصبية الاصيلة فيها وصفاتها المكتسبة ، لا سيما وان المكتسب من الصفات متى كان متوارثاً على أجيال متتالية يصبح بمقام الاصيل . وانما يهمنا في هذا المقام درسها كما هي اليوم . ولنتذكر في اثناء درسنا هذا : اولا ان جانباً من اخلاقها مكتسب او مضخم بتأثير التربية . وثانياً ان ليس بين الاخلاق التي سنأتي بذكرها خلق لا نجده في الصبيان ـ ولو بصورة ضئيلة ـ فانما الفرق في درجة بروزه

الحركة

ان الفتيات اجمالا شديدات الشبه بالفتيان في ادوار معلومة من حياتهن . فتراهن يشاركنهم في العابهم او يتمنين تلك المشاركة متى حرمنها . قالت مدام غيزو : « لست اعرف صبية ـ لو اتيح لها اتباع رغبتها ـ لا تفضل العاب الصبيان الفظة الخشنة على ضروب التسلية اللطيفة المألوفة لديها . . . » وما ذلك الا لأن التعطش للحركة فطري في الجنسين على السواء . ومن جهة اخرى قلما تجد غلاماً لا يحب اللعب بدمية اخته واوانيها البيتية لأن غريزة المؤانسة ـ كغريزة الحركة ـ اصيلة في كليهما . ومع ذلك فان ألعاب الفتيان بوجه الاجمال غير العاب الفتيات

واذا درسنا حركات الفريقين وجدنا انها تختلف في النوع ان لم تختلف في القدر . فحركات الفتيان ارحب واتم ولكنها ليست اكثر عدداً . ثم ان الفتيان أميل الى ضروب الحركة المتسعة المجال

كالمشي والجري والقفز ، في حين ان الفتيات اميل الى الحركة المحدودة المحصورة كالحركات التمثيلية وتلك التي تعبر عن مرامي الشعور . وعلى الاجمال فالغلمان يحبون العراك والالعاب الخشنة وسائر مظاهر القوة كما انهم يحبون السيطرة والتأمر . حدثني صديق لي قال : « في احدى حدائق ستراسبورغ قفص كبير يحوي حيوانات مختلفة . فكانت الفتيات اذا اقتربت من القفص نادت تلك الحيوانات بصوت رقيق ثم رمتها بقطع من الخبز . اما الغلمان فكانوا يخشنون معاملتها ويرمونها بالحجارة » . وقد شهد الصديق المذكور هذا المشهد نفسه نحو عشرين مرة فعده دليلاً على الفرق الفطري بين مزاج الجنسين

الكلام

تتكلم الفتيات عادة قبل تكلم الفتيان . وازيد على ذلك انهن في الغالب يتكلمن اكثر منهم — وان تكن الثرثرة من صفات الطفولة في الجنسين ، اذ تتحول النزعة الفطرية للحركة والعمل في الاطفال الى تلك الصورة فترى الطفل يتلفظ بكلمات وعبارات لا بداية لها ولا نهاية — كأنه يتكلم لمجرد التلذذ باستماع كلامه . ولكن تلك الثرثرة المستمرة — وان شئت فقل ذلك الزيف اللفظي — هي في الاناث أظهر منها في الذكور . على انه ليس من غرضنا ان نؤيد بذلك ما تتهم به المرأة أحياناً من كثرة الكلام مع قلة الحرص على المعنى

التقليد

الفتيات اكثر تقليداً من الفتيان — وان تكن غريزة التقليد واضحة في الفريقين . ويظهر كذلك انهن اجود ملاحظة وأشد انتباهاً لما يجري أمامهن وان لهن لذة عظيمة في اعادته وتمثيله . وهن يبرعن في ذلك براعة فائقة . ولكنهن أضعف ابتكاراً من الفتيان وأقل استنباطاً . وليس أعجب من فتية تعيد لدميتها العبارات التي سمعتها من أمها بنغماتها وحركاتها

وإذا ثبتت لدينا هذه الخاصة وجدنا انها تسهل علينا تعليل أمور كثيرة في خلق المرأة . فالتقليد قرين المرونة واللين والطواعية والقدرة على التكيف وفقاً لتكيف البيئة . ومن ثم ندرك موهبة الفتاة التي تمكنها من تقليد كل اشارة وبراعتها في ما لا يستدعي الابتكار ، كما اننا ندرك أيضاً استعداد المرأة لتطبيق نفسها على الاحوال التي تطرأ عليها ، واستعاضتها بفضل ذلك الاستعداد مما قد ينقصها من التعليم والتهذيب متى ارتفعت فجأة الى مرتبة أعلى من مرتبتها الاولى

على ان التقليد من الجهة الاخرى يؤدي بها الى الانقياد للرأي العام والخضوع للعادات الموروثة والتقاليد المألوفة ، ومنه ينشأ أيضاً الانصياع الأعمى « للمودة » وضياع الذاتية وفقد قوة الابتداع والاختراع

ثم أنه يجوز لنا أن نقرن بهذه الموهبة — موهبة التقليد — اكثار الفتيات على الخصوص من الاشارات والحركات . وقد نبغ منهن

في فن التمثيل غير واحدة ممن لم يجزن دور الطفولة ، أي منذ السنة السادسة بل قبلها . ومعظم نوابغ التمثيل الحديثي السن من الفتيات . ويجدر بنا مراقبة الفتيات من هذا القبيل حتى لا يغالين في التمثيل ويعتمدن عليه في بلوغ مآربهن . ثم أنك تجد الفتيات أشد حذقاً من الفتيان وأدق تمييزاً في ادراك مرامي الغير واستطلاع أفكارهم واحساساتهم — ولا سيما متى كانت لهن مصلحة في ذلك . وسنرى ان هذه الموهبة — التي وجدنا جرثومتها في الفتاة — انما هي من أخلاق المرأة التي اكتسبتها مع مرور الزمن لانها اعانتها على البقاء في نزاع الحياة

الاحساس

الفتاة على الاجمال أدق احساساً من الفتى وأشد انعطافاً . انظر اليها كيف تحضن دميتها وكيف ترعاها بلهفة وحنان تتبين لك تلك الميزة واضحة . وما ذلك منها الا سبق ظهور لغريزة الامومة — وهي الغريزة التي تسمو في المرأة على كل غريزة أخرى . ولله در ميشله القائل : « المرأة أم منذ المهد بل أنها تتعشق الامومة حتى لقد تعد بمنزلة الاولاد كل ما يوكل اليها أمره — حياً كان أم غير حي » . راقب الفتاة الصغيرة وما تبديه من العطف والرعاية متى فوض اليها أمر اخوتها وأخواتها الصغار وكيف تسعى جهدها في ملاحظتهم وارضائهم بل في تعليمهم وتدريبهم ايضاً — فانما ذلك دليل جلي على ان المرأة خلقت لتكون أماً ومربية في المقام الاول

ان الفتاة بوجه عام أقرب من الفتى الى التأثر والانفعال والاضطراب . ولئن خاف الأولاد عموماً من الفيران والحشرات فان ذلك الخوف أشد في نفوس الفتيات وأوقع . كذلك ترى في معظم الاولاد استعداداً للبكاء لاتفه الاسباب ولكن دموع الفتيات أغزر وأسهل ذرفاً . قال أحدهم : « ان البكاء من مميزات المرأة في كل أدوار حياتها فبه تنال ما تبتغيه وتأتي العجائب والمعجزات » . أما تعليل ذلك فيرجع بعضه الى أن الانفعال النفسي في الفتى لا يلبث ان يُستظهر بنوع من أنواع الحركة فيضيع تأثيره على هذه الصورة ، في حين ان الفتاة ـ لكونها أقل حركة ـ تكظم الانفعال وتكتم التأثر

ومهما يكن التعليل فلا جدال في هذه الحقيقة . قال منسنيور دوبانلو : « بعض الفتيات مولعات بالبكاء حتى لقد عرفت منهن من كن يبكين أمام مرآة لمضاعفة اللذة المتأتية لهن من البكاء »

الاميال

أما فيما يخص الاميال الغريزية فقد نسب الكاتب المتقدم محبة الذات الى الفتيات على العموم . على ان اختباري يحملني على الاعتقاد بان الفتيان ليسوا دون الفتيات في هذا الشأن بل أكاد أقول أنهم يفوقونهن فيه . ولكن مظاهر تلك العاطفة تختلف في الفريقين ، كما تختلف فيهما ايضاً مظاهر الغضب والغيرة والنهم والاختيال وغير ذلك من العواطف . فالفتيات مثلا أشد حرصاً على أزهد الأشياء وأقلها قيمة في حين ان الفتيان أكرم منهن

وأسمح نفساً . ومن جهة أخرى تجد الفتيان أكثر تصلفاً وتحدثاً مما ترهم بينا تجد الفتيات أشد عجباً وأحذق في جذب الأنظار. على انه يجب لوم بعض الوالدات على انماء تلك الصفات في بناتهن بالمغالاة في تزيينهن وتحليتهن والعناية بهندامهن ، فان الفتاة على الغالب في غنى عمن يحثها على ذلك اذ ترى جلّ اهتمامها محصوراً في حسن الظهور مهما تبذل في هذا السبيل ، حتى لقد تستنزل بها التوبيخ ولا تصبر على عدم الاكتراث لها ، بل قد تلجأ الى البكاء كي تجد من يعنى بها ويلتفت اليها . فمن ذا الذي لم يلاحظ الفتيات وهن يلعبن كيف يترقبن من حولهن ويستطلعن آراءهم فيهن بنظراتهن الخفية . على ان الفتيان أيضا لا يألون جهداً في استعطاف القلوب وبهر العيون والظهور بمظهر الرجال ، ولكن الفتيات أشد اهتماماً بانفسهن من هذا القبيل بل يكدن وهن يلعبن يوجهن نصف حركاتهن واقوالهن الى من حولهن

ومع رغبة الفتاة في التأثير يجدر بنا ان نذكر خجلها الذي يزداد ظهوراً بعد سن البلوغ فيعوق سلاسة افكارها وتعابيرها ويعرقل ما فطرت عليه من الحذق والبراعة . فانها لا تلبث ان تتنبه الى كل حركة من حركاتها وترقب ما تحدثه من التأثير في النفوس وذلك مما يقف في سبيل مهارتها الطبيعية

ثم انها من ذلك الحين تتصنع في حركاتها وملامحها واشاراتها على قدر رغبتها في جذب الانظار . حدث منسنيور دوپانلو قال : «كانت فتاة تتنزه في حديقة مع والدتها فاستوقفتها فجأة وقالت :— لنعد يا اماه من هذا الطريق ! — ولماذا يا بنيتي — لأن فيه سيدة

قالت اني جميلة ! » . على اننا لو فرضنا ان تلك السيدة التي حازت عناية الفتاة وعطفها جاءت يوماً لزيارة والدتها فالأرجح ان الفتاة تتهرب من مقابلتها خجلا وحياء

ويتبع ذلك ايضاً كره الفتاة للاستهزاء — لا لاستهزائها بالغير بل لاستهزاء الغير بها — فقد تبيح لنفسها الاستخفاف بمن حولها ولا تطيق اي اشارة تدل على استخفافهم بها ، بل انها تعد ادنى عبارة او حركة في هذا المعنى اهانة لها عظيمة

ومن اظهر الصفات في الفتيات المنافسة — وعلى الخصوص المنافسة في اجتلاب الرضى ونيل الاعجاب — لا سيما وان والداتهن في الغالب تدفعهن في هذا المضمار . على ان ذلك الميل لا يبرر وصفهن على العموم بالغيرة والحسد — وان تكن المنافسة في امزجة مخصوصة واحوال معينة كثيراً ما تتحول الى احدى هاتين الرذيلتين . على ان منسنيور دوپانلو قد ذكر ان اختباره الطويل في تعليم الاحداث حمله على الاعتقاد بانهما على الاجمال اشد في البنات وأظهر

واتفق الملاحظون ايضاً على ان الفتيات أقل استقامة من الفتيان واقرب حيلة وأوفر معاذير وأمهر في السياسة وحسن التخلص وأقدر على التلفيق والاختراع واميل الى الاغراق والمبالغة — وقد يلجأن الى ذلك عن اضطرار أو بلا اضطرار لمجرد التلذذ وحب الفن ! وهن على الخصوص امهر من الصبيان متى تعمدن الكذب فتجدهن احضر ذهناً وأقل اضطراباً

ولكن هذا البحث يدخل في باب الادراك والارادة اكثر من دخوله في باب الاحساس فلنذكر كلمة عن ذلك

الارادة

لا تتجلى الارادة في أرقى مظاهرها الا بعد سن معلومة . فكل من الصبي والصبية يظل زمناً طويلاً والخوف مستول عليه لا يملك ارادته ولا يسيطر على نفسه . ومع ذلك يجوز القول بان ارادة الفتاة أضعف وأقصر مدًى . فهي في الغالب سلبية دفاعية ، واكثر ما تتجلى في العناد وصلابة الرأي

ولعل الفتاة تفوق الفتى في التقلب والتنقل متى أتيح لها العمل وفقاً لرغائبها المتلونة على الدوام . فانها ميالة بفطرتها الى التعلق بكل رغبة تخطر لها والسعي اليها بكل قوتها

الذكاء

على انه لا ريب في ان الفتاة تسمو على الفتى في ميدان الذكاء . فان ألد أعداء المرأة القائلين بتخلفها عن الرجل في جميع الميادين لم يسعهم الا التسليم بان ما بين الجنسين من الفروق العقلية انما يظهر بعد سن الشباب وان الفتيات قبل تلك السن اكثر فطنة وأقوى ذاكرة وأقرب الى الفهم والحفظ . على اني — في اختباري الشخصي — قد وجدت ذكاءهن سطحياً ووجدت انهن أقل من الفتيان ميلاً الى المطالعة ودونهم تفكيراً وابتداعاً . ولكن هناك شواذ لهذا الحكم . ومن أغرب هذه الشواذ قصة فتاة أظهرت

بين الثامنة والتاسعة من عمرها قوة عقلية فائقة وميلاً عجيباً الى استطلاع المسائل النفسانية والروحانية كمبدإ الحياة ونهايتها ومشكلة الموت والابدية واللانهاية الخ . . ولئن تعذر الاعتماد على هذه الحوادث والمحاجة بها فلا اقل من ان تبين لنا ان صفة الانوثة لم تكن حائلاً دون نمو العقل على هذه الصورة النادرة . وفي الجملة يصح القول بان ذكاء الفتاة ابكر نضجاً من ذكاء الفتى كأن الطبيعة تمنحها هذا الامتياز لتعيضها من وقوف نموها بعد ذلك

* * *

والخلاصة ان مشاهداتنا في هذا الفصل جعلتنا نستكشف في الفتاة بذور المواهب والسجايا التي استخلصناها من درس حالة المرأة التاريخية وحالتها الجسمانية . وسنرى فيما يلي ما يكون من كل ذلك عند اكتمال نموها اذ تتجلى فيها صفات الانوثة تامة

الفصل الخامس

احساس المرأة بوجه الاجمال

دور الانتقال

يحسن بنا قبل تشريح المرأة تشريحاً نفسياً ان نذكر كلمة وجيزة عن دور انتقالها من الحداثة الى الشباب :

لا يخفى ان تلك الفترة خطيرة الشأن في حياتها . ففيها تبرز صفات انوثتها وتتجلى سجاياها الكامنة فتصبح امرأة بعد ان كانت فتاة ـ كما تتفتح الزهرة الناضرة بعد ان كانت برعماً ضئيلاً . وهذه السن في الغالب محفوفة بالمخاطر الشديدة . لكن الفتاة قلما تتيقظ لما يحدق بها من الخطر ولذا يجب على ذويها ان يتيقظوا لذلك بدلاً منها وان يراقبوها على الدوام في هذا الدور الحرج ليخففوا عنها وطأة الاضطراب العام الذي يستولي عليها . ولا بد لها في هذه الاثناء من ملازمة الهدوء والسكينة حتى يتم الانتقال من غير حدوث ما لا تحمد عقباه

ثم ان هذا التغيير ليس مقصوراً على الحالة الجسدية بل يتناول الحالة العقلية أيضا . اذ تنمو مواهب المرأة فجأة ويتم تكوينها فتتخذ وجهتها النهائية ـ وبعبارة أخرى ان خلقها يبرز اذ ذاك ، كما ان ذكاءها ايضاً ينضج بسرعة عجيبة . والبون شاسع

بين الجنسين في هذا المضمار فسرعان ما « تركز » الصبية وتصبح راشدة رزينة في حين يقضي الصبي سنوات قبل ان يصير عاقلا حكيما . ثم ان أزمة البلوغ تجعل الفتاة شديدة الخجل كثيرة التأمل في نفسها وحركاتها عظيمة الميل الى الوحدة والانفراد . ولعل الاحساس ابرز المواهب في الفتاة وأسرعها نمواً فلنبدأ به درسنا لاخلاق المرأة

شرة الاحساس

لقد أجمع دارسو أخلاق المرأة وملاحظو أطوارها ـ سواء في ذلك مريدوها ومبغضوها وسواء مادحوها وذاموها ـ على انها صاحبة الفوز في مضمار العواطف حتى ان اوغست كونت أطلق على النساء اسم « الجنس الحساس »

والمراد من كلمة احساس في هذا المقام القابلية للتأثر والانفعال ، والاستعداد للتلذذ والتألم ، وللخوف والحب والبغض الخ . . . فتلك القابلية وهذا الاستعداد اكثر بروزاً في المرأة منهما في الرجل . بل انهما يشغلان الجانب الاعظم من حياتها

ويجدر بنا الآن ان نبدأ بتقرير هذه الصفة فنرى ما يدعمها من الادلة والبراهين ثم نستطرد الى تعليلها فتشريحها وبيان صورها المختلفة . واذ ذاك تتجلى لنا خطورة هذا الموضوع من الوجهة التهذيبية

تقاس شدة العواطف غالباً بما يبدو من آثارها في الجسم . فتحول لون الوجه ، واضطراب حركة التنفس ، واختلال الدورة

الدموية ، وتغير لهجة الصوت ، وضروب الضحك والبكاء والصياح ـ كل ذلك انما يعبر عما يختلج في الصدر من العواطف على اختلاف انواعها

وقد تكفي مراقبة تلك العلامات في المرأة للتثبت من شدة احساسها . فسواء كانت غاضبة أم مسرورة ، وسواء بكت أم ضحكت ، نفرت أم عطفت ، تكبرت أم اتضعت ، فانها على الدوام تحس نوعاً من الاحساس ولا تبقى دقيقة من غير ان تحب أو تبغض أو تشغل قلبها بعاطفة من العواطف

اعتراض لومبروزو

على ان نفراً من العلماء خالفوا الرأي العام في هذا الشأن وفي مقدمتهم لومبروزو العالم الاجتماعي الشهير . فقد وصف المرأة بقلة الاحساس ولا سيما فيما يتعلق بالحواس[1] فجاء بالتجارب والمشاهدات التي اثبتت ان حاستي الذوق والشم في المرأة (وعلى الخصوص حاسة الشم) أخشن منهما في الرجل ، وقدر ان خشونتهما فيها تتراوح بين ضعفي وخمسة اضعاف خشونتهما فيه . وقد نسب الى خشونة حاسة الشم في المرأة اكثارها من استعمال العطور لتتأثر من رائحتها . ثم ذكر شهادة الجراحين عموماً بما تظهره المرأة من الجلد اثناء العمليات حتى ان احدهم نصح بتجريب العمليات الجديدة في النساء اولا لانهن اقل احساساً من الرجال واكثر مقاومة

(١) الاحساس كما لا يخفى حسي أو ذهني . فالاول يكون عن طريق الحواس الخمس والثاني يحدث في الذهن مباشرة من غير مداخلة الحواس

للألم. وذلك يؤيد ما قاله بلزاك من « ان المرأة تخشى الآلام قبل حدوثها ولكنها متى وقعت تتحملها بجلد لا يعرفه الرجل » . ومما يستحق الذكر في هـذا المقام ان المرأة أقدر من الرجل على الاحتفاظ بالهدوء والسكينة بجانب المرضى

على اني أعلل كل ذلك بمقدرتها على التكيف وفقاً لمقتضيات الحال و بسلطانهـا على نفسها وعواطفها . اما لومبروزو ومن ذهب مذهبه من العلماء فيرون في ذلك مناعة بازاء الآلام الجسدية تمتاز بها المرأة على الرجل لأن الطبيعة قد خصتها بقدر من الآلام يفوق القدر الذي خصته به . واذا اعترضنا على هذا القول بأن المرأة حين تنفعل تبدو عليها علامات الانفعال اشد مما تبدو على الرجل اجابوا : « لا يدل ذلك على شدة الاحساس وانما يدل على سرعة الهيجان » كما قال لومبروزو . ثم انهم ينسبون بعض ما يبدو على المرأة من دلائل التأثر والانفعال الى مقـدرتها العجيبة على التمثيل بحركاتها والتلاعب بملامحها وعلى الخصوص الى ما لبعض النساء من القدرة على البكاء متى شئن ذلك . وليس من غرضنا ان ننكر هذه الموهبة في المرأة فقد ذكرناها بين الصفات التي تميز الفتاة في حداثتها . وانما نرى مغالاة في الاعتماد على هـذا القول لتعليل كل ما تبديه المرأة من العلامات المعبرة عن مرامي الشعور . ولا ريب ان التعليل المعقول لذلك انما هو شدة قابليتها للتأثر والانفعال . فانما الانفعال الجسماني ترجمان الانفعال النفساني

الاستشهاد بعلم الخطوط

وجملة القول اننا لا نتردد في التسليم للمرأة بتفوقها في مضمار العواطف فارز خلق فيها انما هو دقة الشعور وشدة الاحساس . ومن الأدلة على ذلك ما جاء في كتب « علم الخطوط » من انه يستدل من خط المرأة على انها اشد احساساً من الرجل . وقد قابل أحد المعنيين بهذا الموضوع ٣٠٠٠ رسالة من خط النساء بهذا القدر من خط الرجال فوجد الاحساس — على ما انبأ فحص الخط — ضعيفاً في ٦٠ امرأة أي نحو ٢ في المئة ومعتدلا في ٥٣٧ اي ١٧٠٩ في المئة وشديداً في ٢٢٠٨ اي ٧٣٠٦ في المئة ووجده اقرب الى حالة المرض في ٦٠٥ في المئة

أما الرجال فقد وجد ١٤٢ منهم ذوي احساس ضعيف (اي ٨ في المئة) و ١١٨٠ ذوي احساس معتدل (اي ٦٦ في المئة) ٧٢٤ ذوي احساس شديد (اى ٢٤ في المئة)

زخم العواطف فى قلب المرأة

ويسهل علينا الآن ان نفهم وصف احدهم لصديقة له إذ سئل عما تعمله وما تفكر به فقال : « انها لم تفكر قط في حياتها وانما هي تحس على الدوام » . وهذا القول ينطبق الى حد على النساء جميعاً . فالاحساس يملأ قلوبهن — حتى متى فكرن فانما يكون ذلك بتأثير عاطفة من العواطف

على ان الرجل ينفعل ايضاً ولكن انفعاله بطيء في الغالب ولا

يقوى إلا شيئا فشيئا بعكس انفعال المرأة فانه مجائي في معظم الاحيان. واذا راجعنا كتب الاخلاقيين في هذا الشأن وجدناها مفعمة ببيان هذا الخلق وشأنه في حياة المرأة. قال فنلون: «من الصفات الكثيرة الانتشار بين الفتيات سرعة الانفعال لاتفه الاسباب. فاذا رأين شخصين متخاصمين لا يلبثن ان ينحزن الى احدهما - ولو في سرهما. فتراهن على الدوام ممتلئات حباً او كرهاً على غير اساس: فان احببن لم يرين عيباً فيمن يحببن وان كرهن لم يرين فضيلة فيمن يكرهن»

ولذا وصف فنلون المرأة بكونها «متطرفة في كل شيء» فانها تتطرف في الخير كما تتطرف في الشر، وفي الحب كما في البغض. وقد ذكر غير واحد من المؤرخين انه كلما حدثت اضطرابات عمومية كانت النساء في مقدمة الثائرين جرأة وحماسة واندفاعاً. ومن ذا الذي لم يشاهد تحول المرأة من الحب المبرح الى الكره الشديد؟ فقلما تستقر عواطفها على متوسط الأمور والاحوال حتى متى ظهرت بمظهر الرزانة والتعقل. بل انها في الغالب تستلذ انفعالاتها وان يكن الانفعال ناشئاً عن الخوف. قال احد الروائيين العصريين: «لبعض النساء ولع بالانفعال حتى لقد يفضلن وقوع المصيبة على الحالة الساكنة المألوفة». وفي ظني ان النساء اجمالا يحببن التمثيل ويفضلن في التمثيل المشاهد المحزنة المؤثرة فقلما تجد امرأة تشكو من كثرة ذلك. ولقد عرفت رجالا كثيرين لم يطيقوا مشاهدة صراع الثيران في اسبانيا في حين انني لم أر امرأة او فتاة لم تعلق به. بل لقد رأيت بعيني ألطفهن شعوراً وارقهن احساساً

وانحفهن مزاجاً يتبعن بلهفة ادوار ذلك الصراع الفظيع - وان لم يتمالكن انفسهن بين حين وآخر من تغطية وجوههن بايديهن ومراوحهن لهول ما يشاهدنه . وليس ادل على كلفهن بهذه المشاهد مع شدة تأثيرها فيهن من هذا القول الذي قالته لي سيدة اثر حفلة من ذلك النوع : « انها لمشاهد فظيعة ياسيدي فلقد حضرتها اكثر من اربعين مرة ومع ذلك لم اتعودها بعد . . . »

ولا حاجة بي الى ايراد الأمثلة المثبتة لهذه الميزة في اخلاق المرأة . فلقد اتفق الجميع في هذا الشأن ، كما انهم اتفقوا على ان المرأة متى أملت شيئاً أملته بكل جوارحها . قالت مدام دي ريموزا : « انه اسهل علينا معشر النساء ان نحرم لوازمنا من ان تخيب آمالنا » . اجل ان جلد المرأة عجيب متى عنينا بذلك جلدها بازاء الشدائد والملمات . ولكنها اذا املت شيئاً املته بشدة واندفاع واذا تولدت فيها رغبة بذلت كل قواها في سبيل تحقيقها . وقلما يقفها عند حدها ما يعترضها من العقبات بل قد يتعذر اقناعها باستحالة ما تسعى اليه . قال اكتاف فوليه : « المرأة اما ان تنزع الى ما هو خير من الخير او الى ما هو شر من الشر » فليس الاعتدال والانصاف من صفاتها

ومثل ما قلنا في رغبتها قل في خوفها . فانها اذا خافت شيئاً غالت في خوفها . ومن العجيب في طبعها انها قد تشعر بتخوف شديد من غير ان يكون لديها باعث معين يحملها على ذلك . ولعلنا قد شعرنا جميعاً في ساعات المرض بخور فجائي بوقع الرعب فينا او بتخوف مبهم يستولي على نفوسنا في حين لا يكون ثمت داع

لذلك . فهذه الحالة مألوفة عند المرأة فكثيراً ما تحس مثل ذلك الاحساس . ولله در الشاعر الذي قال عن المرأة : « انها خلقت للألم والخوف »

قال ديدرو : « ان الحب والغيرة والغضب في النساء قد بلغت مبلغاً لم يخبره قط معشر الرجال » . ثم علل ذلك بقوله : « ان حياة الرجل بما فيها من المشاغل والمشاحنات تصرفه عن اهوائه وتحول دون استسلامه لها . أما المرأة فلها من سكونها وخلو ذهنها ما يذكي اهواءها ويصرفها اليها » . هذا فضلا عن تكوينها الجسماني الذي يجعلها اشد تعرضاً للاضطراب العصبي

لا ريب في ان انزواء المرأة يقوي فيها سلطان الاهواء كأن الاهواء تختمر في الوحدة والسكون . بل انهما يؤثران هذا التأثير ذاته في خلق الرجل فانه اذا لم يستظهر اميال النفسانية ويضيع مفعولها بصورة من الصور لا تلبث ان تتضخم فيه بالتدريج وتصبح شغله الشاغل

وجهة الاحساس الغالبة

لننظر الآن ما هي الوجهة الرئيسية التي يتخذها احساس المرأة . فهل اتجاهها الغالب نحو الحب أو نحو البغض ؟ ان الجواب على هذا السؤال لا يحتمل الشك عندي فلا ريب في ان الحب هو محور العواطف وأساسها ولا سيما في المرأة ، بل ان الامر كذلك في الرجل أيضاً ولكن الى حد . على ان المرأة لا تخلو من العواطف الأخرى كالكره والبغض والحسد

والغضب الخ . . . ولكنها انما تكون تابعة للحب ومرتبطة به على صورة من الصور . ثم ان النساء وان يكن بفطرتهن أرق قلباً من الرجال فقد يتحولن الى القسوة متى حال حائل دون رغبتهن. ولكن تلك القسوة قلما تكون عامة وانما تنحصر في ما يعرقل حبهن فتتخذ صورة محسوسة كالكراهة والانتقام

ان الحب ـ بمعناه الواسع ـ وما آل اليه من الشعور مصدر فضائل المرأة جميعاً كما انه متى صدم وأعيق كان مصدر نقائصها أيضاً . فهو منشأ قوتها ومنشأ ضعفها . ومن المعلوم أن المرأة متى أحبت بلغت أعلى درجات التضحية مما يفوق قدرة الرجل . ولكن حبها هذا قد يفقدها رشدها ويحملها على التضحية بما لا ينبغي قط أن يضحى به ـ نعني شرفها ـ على ان الكاتبة الفرنسية الشهيرة المعروفة باسم جورج ساند قد خففت من زلة المرأة متى صدرت عن عاطفة شديدة بقولها : « لقد تجد بين النساء الساقطات من هن أفضل من بعض الحكماء بل أفضل من الذين يرمونهن بالحجارة »

الحب مرجع لذات المرأة جميعاً فلا لذة لها في شيء الا اذا ربطته بالحب علاقة من العلاقات . ولذا تجد النساء على الاجمال شديدات الانكباب على مطالعة الروايات الغرامية . لأنها تحدثهن عما يلذ لهن وما يشغل قلوبهن . بل قد يصبرن على مطالعة الكتب الفلسفية العويصة متى كان موضوعها الحب . وفيما عدا ذلك قلما يلذ لهن موضوع من المواضيع . قال أحد النقادين الحديثين : « اذا طالعت المرأة رواية فانها انما تبحث فيها عن

اسرار حياتها أو عن أسرار حياة مناظراتها » . على انه ليس ضرورياً عندي ان يكون لها أسرار أو مناظرات لتستلذ مطالعتها . بل يكفي لذلك ان تحوي الرواية بعض أحاديث الحب والغرام : فتذكرها بحبها اذا كانت قد أحبت أو تقوم مقامه اذا لم تحب بعد

ان حب المرأة متى بلغ أشده داخلته عناصر مختلفة فيصبح مركباً صعب التحليل . وفي نظري انه يختلف عن حب الرجل في أمر جوهري وهو انه يمازجه شيء من التخوف ، في حين ان الرجل يعجز عن تصور حب يمازجه هذا الشعور . بل ان الخوف اذا داخل قلبه لا يلبث ان يقتل الحب فيه . لأن من شروط الحب في الرجل السيطرة والسيادة . أما المرأة فيندر أن تحب من غير أن يداخل حبها الجزع والقلق . قال جورج اليوت (وهو اسم مستعار لكاتبة انكليزية شهيرة) : « لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء » . وما ذلك الا لأن المرأة تعلم انه لا يمكن الاستناد الا الى ما كان صلباً متيناً . فلا غرابة اذا احتقرت من كان العوبة بين ايديها

ومن الصفات المنسوبة الى حب المرأة ما دعوه « جاذبية الثمرة المحرمة » أي ان ما حرم عليها حبه يجذبها و يستميلها . على ان ذلك الطبع مشترك بين الرجل والمرأة على السواء . « فكل ممنوع مرغوب » وذلك لأسباب كثيرة : فالممنوع اولا لم يمنع الا لأنه جذاب بطبعه والا لم يكن ثمت داع لمنعه . ثم ان العقبة تذكي الرغبة وتضاعفها — كما يتضاعف زخم الماء حين يقام سد في مجراه . ومع ذلك فلعل المرأة أشد افتتاناً بما يحرم عليها : فقد رأينا انه

يداخل حبها شيء من الخوف والقلق وذلك من شأنه ان يؤجج عاطفتها . ثم ان المرأة ـ لقلة أعمالها ومشاغلها ـ أضعف من الرجل مقاومة للفتنة والتجربة ، أو هي كما يقول علماء النفس الحديثون أشد منه تعرضاً للاستهواء . بل ان التحريم نفسه يستهويها ويجعلها تفكر على الدوام فيما حرم عليها

فائدة تهذيبية

وبناء على ذلك نستطيع منذ الآن ان نضع قاعدة اساسية للتربية وهي « الاقلال من التحريم بقدر المستطاع » ولا سيما في تربية البنات . فاننا في الواقع نحرم عليهن من الامور اكثر مما نحرم على غيرهن . وذلك التحريم في الغالب انما يحثهن على زيادة التفكير بالمحرم والسعي اليه

ومن فوائد هذا الدرس لتربية البنات ايضاً انه يحملنا على انماء الصفات التي من شأنها تهميد اندفاعهن وتخفيف ما بهن من رقة الشعور وسرعة التأثر والانفعال ، حتى يخضعن قلبهن لعقلهن . وليس من المحتم ان يكون العقل والقلب متناظرين متضادين . ولئن كان الاول غالباً في الرجل والثاني في المرأة فعلى التربية ان تمزج حب المرأة بالرزانة والتعقل وأن تضيف الى حكمة الرجل حرارة العاطفة والشعور

الفصل السادس

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها النفس

اقتصرنا في الفصل السابق على درس احساس المرأة بوجه الاجمال و بيان قابليتها الشديدة للتأثر والانفعال . وعلينا الآن أن نحلل ذلك ونرى ما في قلب المرأة من الميول والغرائز والعواطف على اختلاف صورها ومظاهرها والمقابلة بينها و بين الرجل من هذا القبيل . فبالمقابلة تبرز الصفات وتتضح . وهذا هو الغرض الذي نرمي اليه في هذا الفصل وفي الفصلين التاليين

قلنا في آخر الفصل السابق ان الحب ـ وما يترتب عليه من فضيلة ورذيلة ـ يشغل الجانب الاعظم من حياة المرأة ، في حين أن الرجل يحيا بالفكر والعقل اولا . على ان هـذا الحكم تقريبي اجمالي لا يصح اعتماده في جميع الأحيان . بل اننا اذا اتخذنا « الحب » بمعناه السامي وجردناه من مظاهر الانانية وحب الذات أخطأنا المرمى . فليس على الارض مخلوق بشري لا يحب ذاته وانما يتغلب الانسان احياناً ـ بالجهد والتمرين ـ على تلك العاطفة الطبيعية

حب الذات

فالميل الفطري في كل مخلوق هو أن يحب نفسه اولا . والمرأة في ذلك نظيرة الرجل ـ وان اختلفت فيهما مظاهر هذا الميل . على ان فريقاً من الكتاب قال بتفوق المرأة من هـذا القبيل . قالت مدام غيزو : « لا تعنى المرأة بشيء ليس له علاقة بشخصها » . وقالت مدام نكر دي سوسور : « اذا تبينت أخلاق الشابات ولا سيما المتحضرات المترفهات وجدت همهن الاول أن يجذبن الانظار و يبهرن العيون لا أن يحببن بصدق واخلاص » ثم اضافت الى ذلك قولها : « الا ان الطبيعة تعود فتتقاضى حقها من قلب المرأة بعد مجاوزتها سناً معلومة » . واذا طالعنا الروايات الغرامية الحديثة ودرسنا أخلاق « عرائسها » لم نجد فيها قلوباً صادقة فياضة . وانما نجد بدلا من ذلك نزوعاً الى التظاهر وسعياً لجذب الانظار ، بل نجد قلوباً لا تكاد تحب غير نفسها . فمن امثلة ذلك وصف موباسان لعروس احدى رواياته بقوله انها : « . . . كانت تعبد نفسها عبادة » . ومنها ايضاً وصف الفونس دوده للمرأة بانها : « كالولد الطائش بكل ما فيه من خبث ورداءة وكذب وجبانة ! . . . فضلاً عن كونها نهمة فضولية معجبة بنفسها ! »

تلك بلا ريب اوصاف مغالى فيها او ان شئت فقل انها لا تنطبق الا على بعض الشواذ . ومع ذلك تجد فيها قسطاً من الصواب . حب الذات فطري فينا وهو محور أعمالنا في الغالب ـ

سواء في ذلك معشر الرجال ومعشر النساء . وما كنا لنرى في التضحية وانكار النفس جمالا لو لم يستلزما التغلب على ذلك الميل المتأصل في الطبيعة البشرية

فعلى ذلك نرى ان الانانية مشتركة بين الجنسين وانما الاختلاف في اتجاهها ومظهرها . فما هي وجهة الانانية في المرأة وأي الصور تتخذ ؟ هذا ما ينبغي لنا الاجابة عنه الآن

ولنبدأ بدرس مظاهرها السفلى ثم نتدرج الى مظاهرها الراقية . والمراد بالمظاهر السفلى تلك التي تغلب فيها الشهوة الجسمانية أي تلك التي تتعلق بالجسم ومطاليبه الحيوية . أما المظاهر الراقية فهي التي تصدر عن منازع النفس ورغباتها

المظاهر السفلى

يجوز لنا ان نقول بوجه الاجمال ان الانانية في أخشن صورها — اي حين تكون جسمانية شهوانية — اضعف في المرأة منها في الرجل . فحاجاتها اقل من حاجاته عدداً كما انها دونها شدة . وذلك إما طبيعي فيها واما ناشىء عن تعودها القناعة والاكتفاء واضطرارها الى كبح اميالها ، في حين ان الرجل قلما يقاوم ما في نفسه من ميل وشهوة لكونه صاحب القوة والسيادة . وعلى ذلك يصح انهام الرجل في الغالب بانقياده لمطالب فمه ومعدته وحواسه اكثر من انقياد المرأة لها . على ان البعض ينسبون الى النساء عموماً الايثار بمطالب حاستي الشم والذوق بشاهد تعشقهن للروائح العطرية ولصنوف الحلويات (من ملبس وشوكولاته

ونحو ذلك) . على اني اعتقد ان هذا الميل ـ اذا سلمنا به ـ ليس اصيلا في المرأة وانما ينشأ في بيئات مخصوصة وفي احوال معينة . وعلى كل حال لو فرضنا اننا سلمنا بهذه الخصلة فانها اقل شناعة من ضروب حب الذات الاخرى التي يتصف بها الرجل . ولا ريب في ان المرأة بطبيعتها أقنع من الرجل في طلب الاكل ـ وان يكن احساس الجوع فيها اكثر تواتراً كما ذكرنا ، كأنها تسلي نفسها بالقضم والاكل بين ساعة واخرى . وهي ايضاً اقل اقبالا على المشروبات المهيجة و يندر ان تتعود التدخين او تستلذه

اما ما ينسب الى المرأة من الكسل فسنعود الى درسه في فصل الارادة . وانما نقتصر الآن على الاشارة الى انها اكثر نحافة من الرجل واسرع تعباً واشد تأثراً من تقلب الجو . ولعل معظم ذلك نتيجة العادة والتربية . فقلما يبدو شيء منه على النساء اللواتي يعملن في المزارع فانهن نظيرات الرجل في الهمة والنشاط والقدرة على العمل . بل في المدن ايضاً تكاد بعض النساء تضاهي الرجال في الحركة ـ بين الاهتمام بامور المنزل والقيام بالواجبات الاجتماعية من زيارات واحتفالات الى غير ذلك من المشاغل الكثيرة التي تستلزم جلداً عظيماً

والجملة ان حاجات المرأة وشهواتها تختلف عن حاجات الرجل وشهواته : في نوعها اولا . ثم في شدتها ، فهي على العموم اقل شدة واسهل مراساً

المظاهر الوسطى

وما عسانا ان نقول الآن عن الميول المؤلفة من عناصر جسمانية وعناصر نفسانية معاً ـ كغريزة الامتلاك مثلا ، وغريزة التعلق بالمألوف من الاشياء والأمكنة ، وعلى الخصوص غريزة التمسك بالحياة التي يضعها علماء النفس عادة في هذه المرتبة ؟

ان هذه الغريزة الأخيرة متأصلة في اعماق النفس وقلما نجد فرقاً بين الجنسين من هذا القبيل . فالاختلاف فيها فردي لا جنسي . على ان الشعراء ينسبون حب الحياة الى الجنس الضعيف على الخصوص . فالتعلق الشديد بهذا العالم ليس من صفات الرجولة والمتوقع من الرجل ان يكون اجرأ من المرأة واكثر اقداماً واشد اقتحاماً للاخطار . ولكن لئن ابدى الرجل شجاعته في ميادين القتال فللمرأة ايضاً ميادين تتجلى فيها شجاعتها . وقد لا تتجاوز تلك الميادين جدران منزل اوغرفة مريض بل قد لا تتعدى حد نفسها . وقد قال فيكتور هوغو : « ان ثوران الشعوب ضئيل بجانب ثوران النفوس » . تلك هي شجاعة النساء ولعلها اكثر انتشاراً بينهن من انتشار شجاعة الرجال بينهم

والذي يؤخذ من الاحصاءات ان الرجال اكثر من النساء اقداماً على الانتحار ـ بنسبة ٤ الى ١ ـ ولذلك اسباب كثيرة ليس هذا محل الافاضة فيها

اما غريزة التعلق بما يؤلف من الاشياء والامكنة فطبيعي ان تكون اكثر بروزاً في المرأة بسبب معيشتها البيتية الهادئة ، كما انه من

الطبيعي ان تستصعب المرأة مفارقة دارها اذا اضطرت الى ذلك . وعلى وجه الاجمال نرى المرأة اشد من الرجل تعلقاً بما تألف من الاشياء فهي تعدها بمنزلة تذكارات ثمينة بل تكاد تكون مقدسة في نظرها . على ان ذلك الميل فيها انما ينشأ عن حساستها الفطرية التي تشمل كل ما له علاقة بها و بمن تحبهم . وهذا يعلل لنا ايضاً ضعف الميل المذكور في الرجل على العموم فما ذلك الا لكثرة تنقله بين الاشياء والناس

أما غريزة الامتلاك فبارزة ايضاً في المرأة . ولئن تجسم البخل في الروايات الشهيرة بصورة رجل فقد اتفق الملاحظون على ان المرأة بوجه الاجمال اشد بخلاً من الرجل . وذلك منذ الطفولة ، ولكن على الخصوص في سن الشيخوخة . قالت مدموازيل لوربول التي درست هـذا الموضوع في الاحداث درساً دقيقاً : « كثيراً ما يشرك الفتيان بعضهم بعضاً فيما لديهم ، أما الفتيات فانهن اشـد ميلا الى الاحتياز والامتلاك الفردي . فقد يتبادل الفتيان قبعاتهم وقفافيزهم بسهولة بينما نرى كل فتاة متمسكة بقبعتها وقفافيزها » قالت : « حدث لي غير مرة اني رأيت بين الفتيـان من كان يشتري بعض الحلويات بدراهمه ثم يسلمها الى احد رفاقه ليقسمها بين الجميع . اما الفتيات فاذا اتفق ان جرى بينهن مثـل ذلك فان التي تدفع الدراهم لا تنزل عن حقها في التقسيم »

وقالت مدام دي جيراردان : « لندرما في فرنسا ـ بعد المرأة الغشيمة ـ انما هو المرأة الكريمة » وهي لا تريد بذلك الكرم في

الانفاق فقط بل تشير الى ضروب الكرم المختلفة لانها متماسكة ومحكمة القرابة فيما بينها

والذي يؤخذ من كل ذلك ان المرأة — لكونها ميالة بفطرتها الى التطرف في كل شيء — تغالي في البخل متى نحت ذلك النحو. قال فنلون في كتابه « تربية البنات » : « احذروا أن يتحول فيهن الاقتصاد فيصير بخلا و بينوا لهن حقارة تلك الرذيلة وانها تكسب قليلا وتفضح كثيراً . فانما يكون الاقتصاد الحقيقي في النظام والترتيب لا في الشح والتقتير » اجل ان منشأ البخل في النساء انما هو في الغالب ميلهن الى الادخار والاقتصاد . و بعبارة اخرى ليس بخلهن إلا تطرفاً في فضيلة . ومن ذلك ندرك الصورة التي يتخذها البخل فيهن عادة : فالمرأة لا تطلب الكسب والتحصيل والتجميع وانما تمتنع عن البذل والانفاق وتكره ان تتخلى عما لديها . على ان ضعف المرأة وقصورها وتعرضها للعلل والامراض واهتمامها بامر الاطفال وتدبير الدار — كل ذلك من شأنه ان يحملها على التحوط والحذر خوف الحاجة والفقر . وقد جاء في كتب علم قراءة الخطوط انه يستدل من خط المرأة على ان بخلها « سلبي » في معظم الأحيان

ولقد ترى بعض النساء شديدات الاسراف والسخاء على هنداماهن وزينتهن من غير ان يكن على شيء من الكرم . فليس البذخ دليلا على الكرم

فليتنبه المربون اذاً الى ما اسلفناه من الميول حتى لا تتطرف المرأة في احدى الجهتين بل تعرف كيف تنفق بترتيب واعتدال

المظاهر الراقية

لننتقل الآن الى الصور النفسانيـة التي يتخذها حب الذات . فأي تلك الصور اظهر في المرأة ؟ يجب ان نميز في هذا المقام بين عاطفتين او بالاحرى بين نوعين من العواطف : التكبر والعجرفة والغطرسة من جهة ، والعجب والاختيال والميل الى الظهور من جهة اخرى . فانهـا جميعاً من صور حب الذات . ولكنك في الغالب تجد النوع الاول اظهر في الرجال والنوع الآخر اظهر في النساء . قالت مدام دي ريموزا : « الاحوال التي تحمل الرجل على التكبر قد لا تحمل المرأة إلا على العجب والاختيال . فالتكبر ينشأ عن اعتقاد الانسان بتموته وتفوقه ، في حين ان عجبه ينشأ عن التأثير الذي يحدثه في نفوس الغير . وبعبارة اخرى ان هـذا الشعور الأخير يستدعي وجود شخص أو أشخاص يقع عليهم التأثير المطلوب ، حالة كون الشعور الاول قد لا يتعدى من يشعر به » . أجل تلك هي الغريزة المتأصلة في خلق المرأة فانها تسعى بطبيعتها للتأثير في النفوس . قال فنلون : « لا تخشوا شيئاً كحجب الفتيات وحبهن للظهور . فانهن يخلقن وفيهن ميل شديد الى التأثير ولفت الانظار »

على أننا لا نستثني معشر الرجال من هـذه الغرائز الطبيعية . فقد حدث مرة اني سألت احدى السيدات المستنيرات عن الخلق الذي تظنه مميزاً لجنسها . فاجابت على الفور : « حب الظهور » ثم قالت : « لولا هذا العيب البارز في المرأة لكان لها من

براعتها في التكتم ما يؤهلها لادق المراكز السياسية . ولكن ما فيها من العجب والدلال وحب الظهور يسهل قيادها والايقاع بها » . على أن الصدفة جمعتني بعد قليل باحد رجال السياسة المحنكين فذكرت له ما دار من الحديث بيني و بين تلك السيدة فاجابني في الحال : « انها لفي خطأ عظيم . ومن الجهل تفضيل الرجل على المرأة في هـذا الشأن . بل اكاد اقول انه اكثر منها سعياً وراء الظهور . ففي تسع مرات من عشر تجده مدفوعاً بهذا الدافع الذي يوقعه في زلاته ويحمله على افشاء ما ينبغي له كتمانه »

لعلنا الآن اقرب الى انصاف المرأة ـ لا بانكار ما فيها من حب الظهور والتأثير ـ بل بانكار انفرادها في هذا الشأن . على ان صور هذا الميل تختلف في الجنسين : فانه في الرجل يصحب الغطرسة والاعتداد بالنفس في حين انه في المرأة قرين التيه والدلال ـ وهو ما يعبر عنه بكلمة coquetterie وما هي الا السعي الفطري في المرأة (وقد لا تتعمده بل قد لا تحسه ولا تدري به) للفت الانظار واستمالة القلوب ـ ولا سيما انظار الرجال وقلوبهم

هذه حقيقة اتفق في شأنها جميع الذين لاحظوا المرأة ودرسوا أخلاقها بل انها مبتذلة تتداولها ألسنة الصغار والكبار في كل مكان . قال روسو : « تيه المرأة جزء من وظيفتها » . وقال لاروشفوكو : « التدلل أساس مزاج النساء » وقال آخر : « قد تتغلب المرأة على هواها ولا تتغلب على غريزة البهر والتأثير » . ولا غرابة في كل ذلك اذ لا بد للمرأة من لفت الانظار كي تحب ـ

فالحب غايتها القصوى في الحياة ـ بل انها مضطرة الى ذلك بحكم حالتها الاجتماعية فلا نفوذ لها ولا سلطان الا باستمالة الرجل . هذا هو سلاحها الوحيد في جهاد الحياة ولكنه سلاح لا يستهان به . ولذا فلا لذة عندها تعادل اللذة الناشئة عن فوزها في هذا الميدان وتوصلها الى التأثير في نفس الرجل . قال رينان في مذكراته : « أعظم اطراء في نظر المرأة أن يبين لها ما تحدثه في القلوب من التأثير الشديد » وقال فنلون : « لما كان الطريق المؤدي بالرجل الى السطوة والمجد مسدوداً في وجه المرأة فانها تستعيض منه بلذات العقل والجسد : فمن ثمَّ تنشأ حذاقة النساء في الحديث كما ينشأ اهتمامهن بضروب الزينة والتنميق والزخرفة . فعصابة الشعر او لون الشريطة او طرز الثوب او شكل القبعة ـ تلك عندهن مسائل خطيرة الشان »

ان هذه الجملة مع ما فيها من روح الهزء تبين بعض الطرائق التي تتخذها المرأة للوصول الى غرضها من قلب الرجل . على ان أقدم تلك الطرائق وأبسطها وأعمها انما هي « الجمال » . ولذا فاول مطمح للمرأة هو أن تحوز اعجاب الرجل بجمالها واذا لم يتيسر لها الجمال توخت في نفسها الرشاقة أو الذكاء أو رقة الخلق أو طيبة القلب أو غير ذلك . ولكن الجمال هو بلا ريب اول مطامعها حتى أن احذق السيدات واعقلهن وابرعهن لا يرتضين ان يطرى حذقهن وعقلهن وبراعتهن اذا اغفل أمر جمالهن

يحكى عن مدام دي ستال الاديبة الشهيرة انها كانت تغار من مدام ريكاميه صاحبة الجمال الرائع . فحدث يوماً ان الكاتب

لاهارب دعاها الى حفلة موسيقية . فجلس بينهما ثم التفت الى صديق خلفه وقال له : « اني جالس بين الذكاء والجمال » (يشير الى رفيقتيه) . فما كان من مدام دي ستال الا ان عدت قوله اهانة لها فانتهرته بحدة قائلة : « وهل انا بهيمة في نظرك يا ترى ؟ »

حب المرأة للتقريظ

وخليق بنا الآن أن نذكر بعض آثار هذه الغريزة في خلق المرأة . فمن ذلك تأثرها الشديد من التقريظ الموجه الى محاسنها الجسدية ـ مهما تكن عاقلة رزينة ، بل حتى في حين لا يكون ذلك التقريظ مطابقاً للحقيقة . قال أحدهم : « لن تطيق أعقل النساء انتقاداً لجسمها . بل انها تفضل اضأل تقريظ لذلك الجسم على اعظم مدح لسجاياها العقلية » . وقد ألحت مدام غيزو في وجوب الانتباه الى ما يوجه للشابة من صنوف الاطراء . فانها حالما تتجاوز دور الحداثة تصبح وكلها آذان مصغية الى مادحيها . وهي بطبيعتها تفضل التقريظ والاطراء على الاكرام والاحترام . فعلى التربية أن تقاوم فيها ذلك الميل . ولله در من قال : « التملق أشد من الحب فتكا في النساء » . وليس ادل على هذا الخلق في المرأة من نصيحة سيدة نبيلة لولدها الذي كان على وشك الدخول في العالم والتردد على الصالونات وهي قولها له : « ليس لي إلا نصيحة واحدة أقدمها لك وهي أن تظهر كأنك تعشق كل النساء »

ومن ذلك ايضاً حب الزينة والتنميق و « التواليت » . وقد سمى أحد الكتاب المجونيين ذلك الميل الغريزي في المرأة « بشيطان

التواليت » وعد هـذا الشيطان خاصاً بالجنس اللطيف . قال : « كان الهندام قد أصبح لدى النساء بمنزلة عضو جديد » . ومما يجدر ذكره في هـذا المقام ان النساء اجمالا يخطئن في تقدير التأثير الذي لهندامهن وزينتهن في الرجال . إذ قلما يحفل الرجال بشيء من ذلك . واذا حفلوا به فانما يعدونه اعترافاً من النساء بسعيهن لاستمالتهم بل قد لا يسعهم احياناً إلا الاشمئزاز من ضروب التطرف والمغالاة في هذا الموضوع . هـذا إذا لم يكن الرجل إلا مشاهداً . أما اذا كان هو المنفق على ذلك فخليق به أن يتذمر ـ وكثيراً ما نسمع هذا التذمر . قال أحدهم : « من شاء ان يجلب لنفسه الهموم والمتاعب فعليه اقتناء واحد من شيئين : سفينة أو امرأة . فليس في العالم شيء مثلهما يصعب تجهيزه » ومن ألطف ما قيل في هذا الباب قول لابرويير منتقداً المغالاة في اساليب الزينة والتنميق والزخرفة ـ ولا سيما متى تقدمت المرأة في السن وهو : « . . . كأن تقبيح شكلهن لا يحصل لهن بسهولة فيبذلن في سبيله جهداً جهيداً »

ولا يقتصر هـذا العيب على ضروب التحسين الجسماني بل يناول كذلك سعي بعض النساء للظهور بمظهر التفنن في الحديث والبراعة في التنكيت . فالتصنع في هـذا الباب مدعاة للهزء والسخرية . وعلى الاجمال فان المرأة ـ مهما تكن الغاية التي ترمي اليها ـ تقلل بلا ريب من حسنها متى تعمدت تحسين نفسها . ولله در ماريفو القائل : « بعض النساء جديرات بأشد الاعجاب لو لم يعلمن انهن جديرات به »

الحسد

ولعل اسوأ ما في طلب الظهور والتأثير انه يرافقه غالباً تنافس حاد بين النساء يدفع كل واحدة منهن الى طلب التفوق على نظيراتها . وكثيراً ما يحملهن هذا الميل على انتهاج مناهج غير قويمة . ولله در مدام دي جيراردان القائلة : « لا تقنع المرأة بالمديح متى شاركتها فيه امرأة أخرى » فانها تعد ما يناله غيرها كأنه مسلوب من حقها وما يرفع شأن غيرها كأنه خافض لشأنها. ولعل ذلك منشأ ما يحدث بين النساء من التباغض الذي يضرب بحدته المثل وما يظهرن من الخبث والرداءة . ولذا تجب مراقبة تلك الغريزة في الفتيات على الخصوص . فانهن أشد انقياداً اليها من الفتيان . فلقد عرفت فتيات تسمم شبابهن من جراء هذا الضعف الخلقي . فسرعان ما تتحول المباراة والمنافسة الى تحاسد وتنافر . وهذا ما يعلل لنا اتهام الكثيرين للمرأة بتأصل هاتين الرذيلتين في خلقها

على ان الغيرة جديرة بالاحترام بل بالشفقة متى نشأت عن خوف المحب ان ينتزع منه حبيبه . ولكن بين غيرة الرجل وغيرة المرأة فرقاً جوهرياً بينه الفيلسوف كنت بقوله : « يغار الرجل متى أحب . أما المرأة فقد تغار من دون ان تحب اذ تعد كل ظريف ينحاز الى نظيراتها بمنزلة حبيب تفقده »

أما الحسد فقد يؤدي بالمرأة الى اوخم العواقب اذ يدفعها الى مجاراة زميلاتها في كل شيء حتى لقد تلجأ « الى بيع الخراف لجلب

الحرير والى اكل الخس لاقتناء الاواني » كما يقولون

وأشد ما يكون الخطر على المرأة من جراء ذلك حين تزل قدمها في سبيل الغواية والفساد . فكثيراً ما ترى في النساء — حتى الشريفات منهن — رغبة خفية في اجتذاب كل متعشق يحوم حول نظيراتهن . أضف الى ذلك ما يترتب على هـذه المنافسة من الضغائن الخبيثة والحزازات القتالة تدرك مراد الكاتب اللاتيني (بروبرس) القائل : « أشد الحقد والبغض ما نشأ عن الحب » على انه يجدر أن يضاف الى هذه الجملة قولنا : « . . . وما نشأ ايضاً عن التنافس في طلب الظهور والتأثير »

وقد يؤدي ذلك بالمرأة الى التهكم والاستهزاء فترى استهزاءها اذ ذاك قرين الخشونة والرداءة مما ليس فطرياً فيها . فان الفتاة متى جاوزت سن البلوغ تخشى عادة أن يناها شيء من الاستهزاء وهذا ما يحملها على ان تتحاشى خدش احساس الغير بل يجعلها تجتنب المداعبة البسيطة ولا سيما في موضوع الزواج

الطموح

هل في المرأة طموح الى العلا والرفعة والعظمة ، وهل الطمع من طبائعها ؟ تتعذر الاجابة عن هذا السؤال لانه لم يتح للمرأة بعد أن تبدي ميلها من هذا القبيل اذ لا تزال ابواب السعي ضيقة في وجهها . على أن ذلك الطموح مشاهد في المدرسة بين الفتيات والفتيان على السواء . بل لقد قالت احدى المربيات أنه في الفتاة أشد منه في الفتى وايدت ذلك بقصة تلميذة كانت دائماً الاولى في

فرقتها فوجدتها يوماً كئيبة تترقرق الدموع في عينيها وبعد الاستعلام منها فهمت أن سبب ذلك هو ان الفتاة مع كونها لا تزال الاولى في جميع الدروس فقد شق عليها هذه المرة ان يكون الفرق في العلامات بينها وبين الثانية أقل من المعتاد

اما الطموح الى المراكز الرفيعة بين الناس فلا ريب في أنه من أشهى مبتغيات المرأة لانه يؤدي الى الظهور والتفوق . على أن هذه العاطفة تمتاز فيها بكونها تتناول الاسرة جميعاً فالمرأة تود أن ترى زوجها واولادها ودارها في تقدم مستمر . فتلك مفخرتها العظمى . ولكنها كثيراً ما تتجاوز ذلك الى المفاخرة باصلها وبآبائها ولا سيما عند ما يقع من المشاحنة بينها وبين زوجها

على ان هذا التفاخر كثيراً ما يشاهد في الرجال ايضاً . ولكنه أخف فيهم على الاجمال . ولعل ذلك لان الرجل صاحب شخصية قوية مستقلة تجعله يعتمد على نفسه ويفتخر بمآثره في حين أن المرأة مضطرة الى الاعتماد على شيء خارج عنها لتفاخر به كاصلها وأسرتها وزوجها

ولذا كان طموح المرأة على الغالب متعلقاً بزوجها . على انها تحفل بكرامة مركزه عند الناس اكثر مما تحفل بأهمية ذلك المركز في الواقع ، أي انها تعنى بظاهره اكثر من عنايتها بحقيقته . ومن ذلك يتبين لنا اهتمام المرأة بما يناله زوجها من الرتب والنشانات فقلما تجد امرأة لا ترغب في ذلك

حب السيطرة

هل نعد حب السيطرة من طبائع المرأة ؟ لا يجوز لنا الاجابة بالايجاب الا اذا عنينا بذلك ما فيها من الميل الفطري الى التسلط على قلب الرجل ولا سيما قلب زوجها . فانما تحملها على ذلك وظيفتها النسائية وهي كما رأينا لا تنال شيئاً الا بالحظوة في عين الرجل . أما السيطرة الواقعية بمعنى الاستبداد والاستعباد فليست من فطرتها وقد لوحظ « أن الفتى يحب التأمر في حين أن الفتاة لا تعنى الا بالاكرام والتقريظ »

الا ان المرأة الخاضعة لزوجها المطيعة لرغائبه كثيراً ما تكون ميالة الى الاستبداد بخدامها والتجبر على من هم دونها . تلك خساسة معهودة في كل من كان مذلولا لسيده كأن مخاشنة المرؤوس انتقام من الرئيس . وليس هذا الخلق مقصوراً على جنس دون آخر

الفصل السابع

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها الغير

يظهر للمتبصر في خلق المرأة انها جعلت للحياة الاجتماعية اكثر مما جعل لها الرجل . فانها لا تطيق العزلة والانفراد . فلئن عمد بعض الرجال في أحوال استثنائية الى طلب الوحدة وهجر العالم ومن فيه بقصد التفكير واماتة النفس ـ وكأن في ذلك اعترافاً بخروجهم عن سنة الطبيعة ـ فانا لا نعرف من النساء من عمدن الى ذلك . بل ان كلمة « ناسك » في معظم اللغات ليس لها مؤنث . لأنه لم يحدث ـ على ما نعلم ـ أن تنسكت امرأة في زمن من الازمان . فقد فطرت النساء على حب المعاشرة والمؤانسة ولا قدرة لهن على مقاومة هذا الميل الغريزي

رأينا ان المرأة تسعى لاسترضاء الرجل واستمالته وانها تبذل جهدها لتكون مستحبة لديه . تلك حاجة متأصلة في فطرتها . على ان في تلك الفطرة حاجة أخرى اكثر تسلطاً على نفسها واشد اثراً في حياتها . فلئن ودت أن تكون محبوبة فانما رغبتها الاولى أن تكون هي الحابة . ولعل ما تبذله من قبيل استرضاء الرجل واستمالته ليس إلا نتيجة لتلك الرغبة المتمكنة من خلقها . وعلى

كل حال ان هذين الميلين مترابطان . فالغالب أن يكون الحب متبادلاً كأن تلك العاطفة تسري بالعدوى اذا انبعثت من قلب الى قلب لا تلبث أن تنعكس وترد الى مصدرها . على ان هذه القاعدة لا تصح دائماً فقد يحب احدهم ولا يكون محبوباً أو قد يكون محبوباً من غير أن يحب

ومهما يكن الأمر فلا ريب في انه خير للانسان ان يحس احساس الحب بنفسه من أن يكون موضوع الحب ولا يحسه . فمن ذلك نرى ان عاطفة الحب في الانسان ـ أي الحب الموجه الى غيره ـ اشد من حبه لذاته . ويتضح ذلك جلياً متى تنازعت العاطفتان في قلب واحد . فان حب الذات لا يلبث أن يضعف ويضمحل بازاء الحب الحقيقي . قال لاروشفوكو : « ان اعظم عجيبة يحدثها الحب ملاشاته لحب الذات وابطاله طلب الظهور والتأثير »

اجل تلك عجيبة الحب التي تبلغ ارقى صورها متى احبت المرأة حباً خالصاً شديداً . ولكن أليس هذا الحب نادراً ؟ وهل عاطفتها هذه أشد من عاطفة الرجل ؟ لا ريب عندي في ذلك فالحب محور حياتها . على ان حب الرجل قد يعادل حب المرأة قوة واخلاصاً ولكن حبه لا يشغل في حياته المكان الذي يشغله حبها في حياتها . فان له مطامح أخرى ولله در من قال : « الحب جزء من حياة الرجل ولكنه كل حياة المرأة » . فانها سواء أكانت زوجة أم والدة أم أختاً انما تحيا بهذه العاطفة التي تستجمع كل عنايتها واهتمامها ، في حين أن للرجل مهام مختلفة جسدية وعقلية

ومشاغل تسترق فكره وانتباهه بل قلبه ايضاً

حب الام

تظهر هـذه العاطفة في صور مختلفة ولكن اهمها بلا ريب ومحورها جميعاً حب المرأة لحبيبها ، وحبها لأولادها . على ان هذه العاطفة الأخيرة اعم في النساء وأشـد . ولئن جاز وصف بعض النساء بانهن زوجات أصلح منهن امهات فذلك انما يكون من قبيل الشذوذ لأن الأمومة هي غاية المرأة القصوى . اما الرجل فمن الطبيعي أن يكون زوجاً افضل منه اباً ، ولا سيما اذا كانت امرأته في ربيـع الشباب وأولاده لا يزالون في دور الطفولة . وفي معظم الحوادث تجد عطف المرأة على صغارها أشد من عطف الرجل عليهم . فكأن الطبيعة خصتها بهذا الشعور العجيب نحوهم كما خصتها أيضاً بوظيفتها الوثيقة الارتباط بهم والتي لا يستطيع القيام بها أحد سواها . فهي تحبهم بكل جوارحها ـ تحبهم جميعاً حباً جماً خالصاً من كل شائبة ، ولا سيما في أول حياتهم إذ يكونون في أشد الحاجة الى كنفها وعطفها . ذلك هو الحب الطاهر الذي لا تمازجه الأنانية ولا يداخله غرض أو مصلحة . وما كنا لنعلم المبلغ الذي يبلغه الحب والتضحية في هذا العالم لولا قلوب الأمهات

ولما كانت هذه العاطفة اسمى عواطف المرأة وأظهرها فقد قيل أنها كلما أحبت داخل حبها شيء من حب الام . أما العناصر التي يتألف منها ذلك الحب فاهمها الرفق والحنان نحو الطفل الضعيف المفتقر الى الاسعاف . على ان هـذا الرفق وهذا الحنان يفيضان

من قلب المرأة و يغمران كل ما كان ضعيفاً كالطفل مفتقراً مثله الى الاسعاف . ولعل هذه الغريزة تلطف فيها ميلها الى الاعجاب بالقوة ـ وهو كما رأينا نتيجة ما هي فيه بحكم الاضطرار من الاعتماد على الرجل والاعتزاز بقوته . فتراها في الغالب رقيقة الشعور شديدة الحنو نحو من يسترحمها أو يسلم اليها امره . قالت مدام دي ريموزا : « لا بد لمن يبتغي منها خدمة ان يبين لها ما يترتب على عملها من السعادة للغير » . واذا اسعفت احداً فلا تلبث ان تندفع في سعيها وتطلب المزيد . هذا هو كرم نفسها . فلئن أظهرت حباً لذاتها في ميدان المنافسة وطلب الظهور فانها ـ حين يطرق قلبها من باب الرحمة بدلا من ان يلقى فيه الرعب والجزع ـ تتدفق غيرة ومحبة وانكاراً لنفسها . بل ان في حنان المرأة ورقة قلبها خطراً عليها عظيما قد بينه غير واحد من الكتاب الاخلاقيين . فقد تجرها الشفقة والرأفة والحنان الى ما لا تحمد عقباه وتوقعها في الاشراك التي تكتنفها . وعلى كل حال لا ريب في ان مشهد الضعيف متى كان في حاجة الى الاسعاف والاغاثة يؤثر في نفسها و يستميل قلبها اكثر من مشهد القوي المنتصر . وقد يحملها ذلك المشهد على بذل مالها والتضحية باغراضها في سبيل من يستعطفها و يطلب معونتها . وليس ادل على تفوقها من هذا القبيل مما ذكره أحدهم في مقدمة كتاب عن العميان قال : « كثيراً ما تقترن فتاة بصيرة بضرير ولكن يندر أن يقترن البصير بضريرة . وما ذلك إلا لأن اقترانا كهذا يستدعي تضحية لا يستطيعها معشر الرجال »

و لا حاجة للاسترسال في ايراد الأمثلة المثبتة لانعطاف المرأة

ورقة احساسها . فان هذه الصفة واضحة جلية في خلقها . وانما ينبغي لنا الآن أن نستطرد الى ذكر ما يترتب على هذا الميل . فاول ما يترتب عليه كفاءتها لتربية الناشئة ولا سيما في أول أدوار التعليم ، وأهليتها لتهذيب الاولاد المتشردين ، بل اصلاح المجرمين منهم وتقويم نفوسهم . فلعطف المرأة وطول اناتها ودقة عنايتها شأن في كل ذلك ليس للرجل

ولا تقتصر هذه الغريزة على الاولاد والمرضى والمحتاجين بل تتناول كل المخلوقات — طالما لم تقم في سبيلها غريزة أخرى. فهي سر جاذبية المرأة وسر كياستها ولطافتها وحسن معاشرتها. ولذلك كانت المرأة خير الروابط الاجتماعية فيها تزهى المحافل والمجالس اذ يضطر الرجال في حضورها الى خلع رداء الخشونة والظهور بافضل ما لديهم من السجايا والمواهب . فكأن وظيفة النساء — حسب قول فولتير — هي تهذيب أخلاق الرجال

وليس من غرضي ان اذكر حوادث فردية يتجلى فيها عطف المرأة . وانما اقتصر على مثل واحد شاهدته بنفسي في أحد المصايف: وذلك ان احدى السيدات رقت للمشاق التي تتحملها الخيل والحمير في تلك الجهة فكانت كلما رأت حيواناً منها متعباً خائر القوى دفعت اجرته عن اليوم التالي حتى يتاح له أن يستريح يوماً

المخاصمة

ولكن كيف نعلل — مع رقة المرأة وعطفها وحنانها — ما وصفها به غير واحد من القسوة والرداءة وحب الخصام والمشاحنة . فتلك

صفات يكاد الرأي العام يكون مجمعاً على نسبتها اليها . بل ان الكتاب الاخلاقيين أيضاً لم يخففوا من صرامة هذا الوصف . قال فيفس : « لا تكون المرأة رقيقة الا مع من تحتاج اليه » . ولكن هذه التهمة باطلة . وانما يقال على الاجمال ان العواطف على أنواعها تتعاقب في قلب المرأة . فقد تتمكن فيه بالتتابع عاطفتان متباينتان وتبلغ كل منهما أقصى قوتها . وما ذلك الا لان المرأة كما قلنا ميالة بفطرتها الى التطرف . فالعاطفة التي تشغل قلبها لا تلبث أن تتضخم فيه وتقوى على سائر العواطف . وكما ان القسوة والرداءة والخصام قد تنشأ عن حب الذات وطلب الظهور فقد تنشأ ايضاً عن حب الغير متى تعرقل ذلك الحب . فليس من حقد أشد من ذاك الذي يتأتى عن الحب حين يهان أو يهدد

أما فيما يخص حب الخصام والمشاحنة فليس من العدل اتهام المرأة وحدها بذلك . اذ لا بد للتخاصم والتشاحن من اختلاف شخصين وقلما يكون الملوم أحدهما دون الآخر . وقد اتخذ الكثيرون هذه التهمة موضوعاً للهزء والسخرية . فمن ذلك الجملة التالية التي اقترح نقشها على قبر زوجين : « قف يا هـذا وانظر اعجوبة : رجل وامرأة لا يتخاصمان » . على ان الرجل والمرأة في الحقيقة متساويان في كونهما خارج منزلهما أشد لطفاً وأدباً منهما في داخله . حتى ان كاتباً قال يصف رجلاً : « لقد كان لطيفاً بشوشاً . . . حتى في داره » اشارة الى ندرة ذلك . ولا بد من تقويم هذا الميل بالتربية الصالحة

بل اذا سلمنا بان ميل المرأة الى الخصام والمشاحنة أشد من

ميل الرجل تيسر لنا تعليل ذلك بشبه ثوران يحدث في نفسها من جراء الضغط الذي تتحمله كأنها تنتقم لنفسها بحدتها واندفاعها

ولنذكر الآن الصفات التي تميز غريزة الانعطاف الفطرية في قلب المرأة

قصر المجال

أول ما يجب ذكره من ذلك أن المرأة تحفل بالاشخاص أكثر مما تحفل بالآراء والمبادىء. أي أن عنايتها تنصرف الى شخص أو أشخاص أكثر من انصرافها الى رأي أو آراء. قالت مدام غيزو: « قلما نحفل معشر النساء بمجرى الحوادث العمومية ». ولعل جانباً من هذا الميل يرجع الى التربيـة والعادات المألوفة. والامر الراهن على كل حال هو أن المرأة قلما تشغل قلبها بموضوعات عمومية كالتعاون الاجتماعي والاخاء البشري وحب الانسانية ونحو ذلك وانما تنصرف بكليتها الى أفراد معلومين تبـذل لهم كل ما في نفسها من عطف وعناية

قال الفونس دوده الروائي الفرنسي: « متى أحبت المرأة لا ترى غير حبيبها. فكل ما فيها من رأفة وحنان وود وطيبة وتضحية يوجه اليه ـ اليه وحده ». على أن هذا القول لا يصح بحروفه الا اذا أردنا الحب بحصر المعنى، أي العشق والغرام. ومع ذلك نجد عطف النساء بوجه الاجمال مقصوراً على بعض الافراد: فكما أنهن يلجأن بحكم الطبيعة الى عناية أشخاص معينين كذلك تتجه عنايتهن الى أشخاص معينين أيضاً. قال احدهم يصف ماكان من

تأثير صديق جاء يعزي صديقة له نزل بها مكروه : « ان ما فرّج عن قلبها لم يكن ما سمعته من التعزية بل كان شخص المعزي نفسه . وبذلك أظهرت انها امرأة في الحقيقة » . ولهذا السبب لا تستطيع المرأة أن تحسن أو تصنع خيراً ما لم تحصر عنايتها في مجال ضيق محدود . وذلك ما يجعل عملها أشد تأثيراً

قال اميال : « المرأة التي تتلاشى في من تحبه انما تجاري وحي الغريزة وتستحق أن تسمى امرأة بالمعنى الحقيقي . لان تلك الملاشاة طبيعية في كل امرأة مجبولة من طينة جنسها . وبعكس ذلك الرجل الذي ينصرف بكليته الى تعبد امرأته ويقف حياته على خدمتها فانه نصف رجل فقط . ومن كان كذلك لا ينال احترام الناس بل لعل النساء أيضاً لا يحترمنه في سرهن . فالمرأة التي تحب حباً حقيقياً تود من صميم فؤادها أن تضيع ذاتيتها لتدغمها في ذاتية الرجل الذي اختاره قلبها حتى تزيده عظمة وقوة ونشاطاً . وبذلك يقوم كل من الجنسين بوظيفته حق القيام : لان المرأة معدة للرجل والرجل معد للمجموع . فكأنها جعلت لواحد في حين أنه جعل للجميع . ولن يجد كل منهما راحته وسعادته الا بمعرفة ذلك القانون والرضوخ لحكمه »

على أن في هذا الكلام الجميل شيئاً من المغالاة . فليس من رأيي انه مكتوب للمرأة أن تكون ملكاً خاصاً لرجل واحد وأن تلاشي ذاتيتها في محبته . فانما جعلت المرأة لمشاركة الرجل بملذات الانسانية جميعاً الجسمانية والعقلية والاجتماعية . بل أن الرجل العاقل العادل لا يتطلب هذا التكريس . فلئن تحتم على المرأة ان يكون حبها ـ

بالمعنى المحصور ـ مقصوراً على زوجها فليس من الانصاف ان يكون كل ما لديها من عطف وحنان في حوزته وحده ، بل ينبغي ان يتناول بيئتها وبني جنسها . ولا بد من اصلاح التربية من هـذا القبيل حتى تحس المرأة ارتباطها بما حولها وبمن حولها وتدرك واجبها نحو وطنها وقومها ، بدلا من ان تقتصر وظيفتها على العناية بالمنزل كما هو الحال الى هـذا اليوم . فان قلب المرأة يمتلىء في الغالب بحبها لاولادها واسرتها وفيما عدا ذلك يظل مقفلاً لا تنفذ اليه عاطفة اخرى

ولا غرابة في ان يشعر الرجل بحب الوطن اكثر مما تشعر به المرأة . فان له بوطنه علاقة مباشرة . أما المرأة فيندر ان تحس مثل ما يحس . وانما يقتصر احساسها من هذا القبيل على التعلق بالامكنة التي ألفتها منذ صغرها أو التي عاشت فيها زمناً طويلاً . وما هذا الا ضعف في خلقها ينبغي ملافاته بتوسيع الدائرة المشمولة بعطفها وحنانها

ومثل ذلك يقال في حب الانسانية جمعاء . فبينا تجد المرأة سريعة العطف على فقير يقرع بابها أو تعس يتألم أمامها فهي قلما تفكر في الآلام والشرور العامة ـ كاحوال العمال مثلاً ـ بل ان سواد النساء لا يتأثرن الا مما يرينه رأي العين . وفيما سوى ذلك يتعذر عليهن تصور ما يلم بالطبقات السفلى من المصائب والبلايا ، في حين يكن هنيئات متمتعات برغد العيش وطيبه . وذلك ايضاً نقص في تربية البنات يجب الالتفات اليه

التقلب

وما عسى ان نقول الآن عن تقلب المرأة ؟ هل صحيح ما تتصف به عادة من التنقل والتلون ؟ لقد اكثر الكاتبون من اتهامها بهذه التهمة . فقالوا : « ليس من طبيعة المرأة ان تكون ثابتة » وقالوا عنها انها « كالريشة في مهب الريح . . . » . على اني لا اعتقد صحة ذلك مع تداوله على الألسنة . فانما تتغير رغائب المرأة حين لا تحب حباً شديداً . وما ذلك الا نتيجة قعودها عن العمل وخلو فكرها من المشاغل — وهو ما تمكن ملافاته بتفتيح ذهنها وتعويدها النظر في الشؤون الجدية — ولكنها متى أحبت الحب الصحيح تعلقت بكل قواها ولا ريب عندي في تفوقها اذ ذاك على الرجل من قبيل ثبات الحب وطهارته . فانما يبدو الملل والاهمال من جهة الرجل اولاً اما المرأة فحبها يتزايد كلما استرسلت فيه ويتضاعف مع ما تبذله في سبيله . قال اليبر : « ليس الشقاء عائقاً لحب المرأة متى احبت باخلاص » . وقلما تجد امرأة يتغلب فيها كبرياؤها على عطفها ووداعتها تجاه من تحبه ويحبها

الصداقة

بقي ان نقول كلمة عن صفة ثالثة في خلق المرأة أجمع الناس على وصفها بها . فانها — بحسب الرأي الشائع — لم تجعل للصداقة الصحيحة . قال لابرويير : « الرجال يفوقون النساء في ما يتعلق بالصداقة » وقال لاروشفوكو : « اذا ذاقت المرأة طعم الحب لم

تستلذ الصداقة » . وقال مثل ذلك كثيرون ـ فضلاً عن الذين قالوا ما هو أشد منه

على اني أشك في صحة هذه الاقوال . وفي اعتقادي ان الصداقة المتينة الخالصة من كل شائبة نادرة بين الرجال والنساء على السواء . فليس في طبيعة المرأة ما يحول دون تلك العاطفة ـ وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فصداقة النساء خالية في الغالب من التعقل والرزانة والجرأة على النصح والتأنيب وهو ما تقتضيه الصداقة الحقة . ولكنها من جهة أخرى أشد حماسة واكثر حمية واندفاعاً

وينحصر ما تتهم به المرأة من هذا القبيل في امرين : الاول انها لا تصادق بنات جنسها لما يحول دون تلك المصادقة من الحسد والمنافسة . والثاني انها لا تصادق الرجال لان صداقتها لهم لا تلبث ان تتحول الى عاطفة أخرى هي عاطفة الحب

اما فيما يخص التهمة الاولى فاني أسلم بان الصداقة الحقيقية نادرة بين النساء ـ وان بلغت بين الفتيات احياناً مبلغاً عظيماً ، فانها لا تلبث ان تضمحل وتتلاشى بعد الزواج اذ تشغل قلوبهن عواطف أخرى . ثم ان الصداقة بين النساء سطحية في الغالب ولذلك قال بول بورجه الروائي الفرنسي : « تختلف صداقة النساء عن صداقة الرجال في ان هذه الاخيرة لا تقوم الا بالثقة المتبادلة في حين ان الاولى لا تحتم تلك الثقة . فالصديقة لا تصدق دائماً ما تقوله لها صديقتها . . . على ان ما بينهما من التحذر المستمر لا يمنعهما من تبادل الود والانعطاف » . ومع ذلك فان تصادق النساء ليس محالا رغم العقبات التي تحول دونه

قال ديدرو : « قلما تتحاب النساء ـ الا انهن مرتبطات برابطة خفية تحملهن على الذود عن مصالحهن المشتركة . فقد تكره الواحدة زميلة لها وتتصدى مع ذلك للدفاع عنها » . وقد دعى شوبنهور تلك الرابطة « ماسونية النساء » ولعل ذلك دليل على انهن يفهمن معنى التعاون والتكاتف

بل أعتقد ان الصداقة ممكنة بين رجل وامرأة . وليس اللوم كله على النساء اذا ندر ذلك . فلا ريب عندي في ان المرأة تستطيع في بعض الاحوال مصادقة أشخاص معلومين . والامثلة على ذلك كثيرة

قال لابرويير : « اذا اجتمعت لدى المرأة الجميلة صفات الرجل الطيب كانت عشرتها ألذ ما في العالم اذ تجتمع فيها فضائل الجنسين »

ولئن أنكر البعض وجود تلك الدرة الثمينة فما ذلك الا لكونهم لم يعثروا عليها . وامثال هؤلاء خليقون بان نرثي لحالهم

الفصل الثامن

احساس المرأة (تتمة)

العواطف المركبة والعواطف السامية

لقد وصلنا الآن الى طبقة من العواطف يجوز لنا ان نسميها سامية لانها لا تحوم حول الاشخاص بل تتناول أموراً معنوية تتعلق بمنازع نفسية عالية كالشرف والعدل والحقيقة . فكيف تحس المرأة احساس الخير واحساس الحق واحساس الجمال والاحساس الديني ؟ ليس من ينكر وجود هذه المنازع السامية في قلب المرأة فانه يحوي سجايا البشرية الأساسية . ولكن يدعي البعض انها ليست واضحة جلية وانها تضأل في الغالب وتتلاشى بجانب اميالها الغريزية المختلفة التي ذكرناها فيما تقدم . فالمرأة في نظرهم شديدة الاهواء يتعذر عليها ان تكون منصفة ، كما انها كثيرة الطيش لا يمكن ائتمانها على سر ذي شأن . وقس على ذلك

* * *

وقبل خوض هذا المبحث يجدر بنا أن نذكر طبقة من العواطف المركبة الناشئة عن تفاعل الأميال التي ذكرناها في

الفصلين السابقين . فقد درسنا نوعين من الأميال : ما يرجع منها الى الذات وما يرجع الى الغير . فهذه الاميال تتركب احياناً وتتفاعل بصور مختلفة فتشغل الجانب الاكبر من حياة المرأة ولا تترك لها مجالا للتمتع بالمشاعر السامية التي هي موضوع هذا الفصل . وسندرس اولا خلقين مركبين من عناصر انانية وعناصر غيرية معاً ، ثم نكتف على درس العواطف السامية

الغيرة

الغيرة مزيج من حب الذات وحب الغير . وتكاد تكون هذه العاطفة من مميزات النساء . قال احدهم : « تغار المرأة على كل شيء : على زوجها ، وعلى اولادها تزوجوا أم لم يتزوجوا ، وعلى صديقاتها الخ . . . ومما يؤجج نار الغيرة في قلبها الحساس خيالها الذي يخلق لها في بعض الاحيان عالماً وهمياً لا وجود له الا في ذهنها » ولا ريب ان الغيرة تسمم القلب وتجعله رديئاً قاسياً . فاذا تمكنت من المرأة ـ وان كانت طيبة بفطرتها ـ جعلتها مغمومة حزينة وولدت فيها من مرارة الحقد والضغينة ومن الرغبة في الانتقام والاستظهار ما يملأ قلبها وحياتها

وقد تنشأ الغيرة في المرأة عن حبها لذاتها ـ حين تزدرى ولا يحفل بها . ولكنها لو لم تنشأ الا عن حب الذات لما كانت على ما فيها من الشدة والزخم ، كما انها لو لم تنشأ الا عن الحب لما كانت بتلك المرارة . فتركبها من هذه العناصر معاً هو الذي يظهرها لنا بذلك المظهر الشديد الأليم

الثرثرة

لقد شبه الكتاب المقدس لسان المرأة الغيورة بالسوط . على ان لثرثرة النساء ـ مع ما فيها من الفضولية والمداخلة في شؤون الناس وافشاء اسرارهم الخ . . ـ اسباباً اخرى غير الغيرة . فانها نتيجة ما كشفناه من اخلاق المرأة فيما تقدم ـ كحبها للظهور الذي يحملها على الكلام لتلفت اليها الانظار ، ومؤانستها الفطرية التي تدفعها الى ملاطفة من حولها ، وعطفها الغريزي الذي يحبب اليها المعاشرة . اضف الى ذلك نوع معيشتها على ممر الاجيال ـ تلك المعيشة الساكنة الخالية من المشاغل الجدية والاعمال الخطيرة المقصورة في الغالب على مهام يدوية تشغل الاصابع والايدي وتترك المجال واسعاً للخيال وللسان . ومن الطبيعي ان تزيد رغبة النساء في استطلاع الحوادث اذا احجمنا عن اخبارهن بما يجري ، وان يعنين بالأمور التافهة اذا لم نشركهن في الأمور الخطيرة . ولو بحثنا بانصاف لوجدنا في تلك الاسباب منشأ ما توصف به المرأة من حدة اللسان وكثرة الكلام ـ وهو ما لا سبيل الى انكاره

على ان الرجل الخالي العمل ايضاً لا يلبث ان يصبح نظير المرأة في الثرثرة وحب الاستطلاع ـ بل انه كذلك بطبيعته الى حد معلوم ، لأنه مثلها يحب الظهور والمؤانسة . ولكنه لا يعلق على الكلام تلك الاهمية التي له عندها . ولعله اميل منها الى افشاء شؤونه الخاصة تحدثاً بمآثره ، في حين انه من الجهة الأخرى احرص منها على شؤون غيره . اما المرأة فانها اقدر على حفظ

اسرارها واميل الى افشاء اسرار الغير . ثم ان الرجال مهما احبوا الثرثرة يقفون فيها عند حد محدود ومهما يكن من تطلعهم الى استكشاف الامور يندر ان يعنوا بشيء ليس له صفة عامة او ليس له علاقة ببعض الاشغال

وتكاد تجمع الآراء على ثرثرة النساء وعجزهن عن حفظ الاسرار . قال اسكندر دوماس : « ان الله لم يمنح المرأة ذقناً لأنها لا تستطيع السكوت اثناء حلاقتها » وقال اراسموس : « في مضمار براعة اللسان كل سبعة رجال يعادلون امرأة واحدة » . ولا بد لنا في درس هـذا الموضوع من التمييز بين شيئين : قدر الكلام ونوعه

اما القدر فان كثرته قرينة قلة التفكير في الغالب . قال فنلون : « معظم النساء يقلن اشياء قليلة في كلمات كثيرة » . على ان اندفاعهن في هذا الميدان وما يظهرنه من الفصاحة والبيان قد ينشأ عن عاطفة كريمة كالرحمة والشفقة فيسترسلن في الكلام بحماسة وكأن حماستهن تكسبهن مهارة و بلاغة . وكثيراً ما تحوم ثرثرة النساء على مواضيع لا فائدة فيها ولا ضرر

واما نوع الكلام فمرتبط بقدره ارتباطاً شديداً ، لأن الكلام تقل قيمته في الغالب كلما زادت كميته . اذ لا غنى لمن يميـل الى كثرة الكلام عن ايجاد مواضيع يدور عليها كلامه فيجنح مضطراً الى المسائل التافهة التي تضحك وتسلي . بل قد يلجأ الى النميمة والهذر وكشف الاستار واباحة الاسرار . فيتحول كلامه إذ ذاك الى رذيلة قبيحة ولا سيما اذا تمكنت فيه تلك الخصلة مع التكرار

والتمرين . وليس غريباً أن يكون في النساء ضعف من هذا القبيل على انهن — كما ذكرنا — شديدات الاحتفاظ باسرارهن الخاصة . قال لابرويير : « المرأة احفظ لسرها من سر غيرها » . الا انه من السهل احياناً استطلاع مكنونات قلبها من اقوالها وحركاتها وملامحها

والجملة ان الثرثرة ضعف في المرأة حتى اذا لم تداخلها الرداءة والنميمة . فان لم تنل من كرامة الغير نالت من كرامتها هي . لأن الكلام اذا خرج من فمنا كان حاكما علينا

* * *

على ان الغيرة والثرثرة ليستا معدومتين من خلق الرجل . ولذا لا تحولان دون شعور المرأة باسمى ما لدى الانسانية من المشاعر . على ان نفراً من الكُتّاب انكروا عليها ذلك فلنفحص حججهم ونمحصها

الشرف

اما فيما يتعلق بشرف المرأة — وما هو الا حياؤها وحشمتها — فليس من ينكر هـذه العاطفة فيها . ولكن البعض ينسبونها الى اميال سفلى . منهم لاروشفوكو فقد ذهب الى ان حياء المرأة اما ان ينشأ عن خوفها من الرأي العام — قال : « ليس حياء المرأة في كثير من الاحيان الا حرصاً على سمعتها وراحتها » — او ان يكون من قبيل الغنج والدلال — قال : « كأن حياء المرأة زينة او خضاب لزيادة جمالها » — او انه برودة فطرية في المزاج — قال : « لا تكون

صرامة المرأة تامة الا اذا كرهت » . اما شوبنهور عدو المرأة اللدود فقد تراءى له ان بين النساء اتفاقاً سرياً من هذا القبيل غايته رفع قيمتهن وحمل الرجل على التزوج بهن . ومن ثم — في نظره — تنشأ قساوتهن ازاء من يسلمن اليه انفسهن بلا شرط ولا قيد

لا ننكر ان في هذه الاقوال شيئاً من الحقيقة — ولا سيما فيما يتعلق بخوف المرأة من الرأي العام . فان ذلك الرأي يحكم عليها اكثر مما يحكم على الرجل لكونها اقل منه استقلالا ودونه عملا بنفسها ولنفسها . فهذا العامل خطير الشأن في حياتها . قال فنلون : « الخوف اضمن حارس لفضيلة النساء » . فينبغي اذاً ان يحسب حساب هذا الشعور وان يستخدم في صيانة المرأة من الاخطار المحدقة بها . فلئن تمكن الرجل احيانا من خلع نير العادات المألوفة والتحرر من قيود الرأي العام فليس بمستحسن من المرأة — في حالتها الحاضرة — ان تنتحي هذا النحو وتضرب عرض الحائط بما يقال وما يعمل

على انه وان يكن لهذا العامل شأن لا يستهان به فلا ينبغي ان يكون قانون المرأة وحافظها الوحيد . ولا بد لها ولنا من الاعتماد قبل كل شيء على احترامها لنفسها وحرصها على كرامتها

الواجب

ولندرس الآن اسمى عاطفة في الانسان — عاطفة الواجب . فما شأنها في حياة المرأة ؟ ان المتداول من الآراء في هذا الشأن

يلخص في قولنا ان تلك العاطفة في ذاتها باردة ناشفة وانه ليس لها من الحرارة والجاذبية ما يفعل في قلب المرأة . على ان هذا الحكم لا يصح الا اذا صح أن احساس الواجب صورة ذهنية مجردة من كل رهجة و بهاء . ولكن الله له الحمد لم يفصل بين العقل والقلب : فعاطفة الواجب ترتكز عليهما معاً اذ لا بد من معرفة الواجب ومن محبته ايضاً . ومع ذلك لا يسعنا الا التسليم بان القسط الذي للقلب أزيد في المرأة منه في الرجل وان الواجب لا يتضح لها جلياً الا اذا مس قلبها . فقد يتعذر عليها القيام به ما لم يطرق ذلك الباب . بل قد تغضي عنه اذا صدم عواطفها . اما اذا وافق هوى من قلبها فسرعان ما تلبيه وشتان اذ ذاك بينها و بين الرجل ! و بعبارة أخرى حين يقضي الواجب بالعدل والانصاف نجد الرجل اقدر من المرأة على القيام به ولكنه حين يستدعي انكار الذات والتضحية بالنفس نجدها متفوقة عليه اذ تستسهل تأدية ما يفرض عليها بل تستلذه وتتعشقه

ولست اقصد من ذلك ان الاحسان فضيلتها الخاصة وان العدل فضيلة الرجل وحده . فعلى كل من الرجل والمرأة ان يتحلى بهاتين الفضيلتين . وانما نستخلص مما تقدم ان في المرأة اهلية لبلوغ اسمى مراتب الرقي المعنوي ولا سيما متى قضى الواجب بارغام النفس واذلالها

ولنبين الآن المميزات الخاصة بالمرأة من هذا القبيل حتى نقارن بينها و بين الرجل فما هو اساس سلوكها ؟ وما هي مقومات سيرتها ؟

سلوك المرأة

قال لابرويير : « ليس للمرأة مبادئ، تعمل بموجبها . فانها لا تسترشد الا قلبها ولا تستهدي الا بوحي الذين تحبهم » . ان هذا الحكم صارم في ظاهره ولكنه في الحقيقة انما يعني ان المرأة اقل تأملا من الرجل في اختيار المسلك الذي تسلكه ، وهو امر لا ريب في صحته لانها تعودت أن تكون مقودة لا ان تقود نفسها ولان ما فيها من فضيلة يصدر في الغالب عن غريزتها وفطرتها لا عن عقلها وحكمتها ـ حتى لقد قال احدهم : « لا تفكر المرأة في اصول الواجب الا حين تريد ان تتحرر من سلطانه او حين تلتمس مبرراً لانتهاك حرمته »

فنرى من ذلك ان الفرق بين الجنسين في هذا الشأن هو فرق في التربية والتهذيب وليس فرقاً أساسياً يرجع الى سجاياها الفطرية . على ان مسافة الخلف بينهما قد بعدت مع مرور الزمن حتى اصبح لسلوك كل منهما صورة خاصة تختلف عن صورة الآخر : فسلوك المرأة غريزي في معظم الاحيان وقلما يستند الى قضية عقلية أو قاعدة منطقية . قال توماس : « يندر ان تحكم المرأة بلا تحيز ـ كما يحكم القانون ـ فهي لا تصدر حكمها الا بعد ان تتبين الشخص الذي تحاكم » . والجملة ان عواطف المرأة تحول فيها دون صدق النظر وصحة الحكم . وهذا امر يتوقعه كل من درس حالتها في العصور السالفة وما كان من خضوعها للرجل وسعيها المتواصل لنيل الحظوة في عينيه ـ وهو ما أفقدها شخصيتها وجعلها عاجزة

عن ادراك معنى الحرية الحقيقية والمنفعة العمومية ونحو ذلك من المدركات الذهنية التي تمكنت من نفس الرجل . فسلوك المرأة موقوف على ما يتراءى لها أو ما يتراءى لقلبها . فقد تؤثر المسلك الجذاب على المسلك الحق « لان الكياسة عندها مقدمة على الصواب » كما قال ميشله . بل ان عاطفة الامومة نفسها كثيراً ما تحيد عن جادة العدل والانصاف فتفضل الام ولداً من أولادها على سائر اخوته . وهي في الغالب تميز أضعفهم - كأن الطبيعة تقوي فيها الشعور الامي ازاء احوج اولادها الى عنايتها (اسوة بسائر الحيوانات فانك لا تجد فيها رابطة وثيقة تربط الام باولادها الا في دور الارضاع)

اما فيما يخص الحياة الاجتماعية فترى المرأة غالباً شديدة التمسك بالاصطلاحات والعادات المألوفة . وقلما تستطيع التنزل عنها بل قلما تميز بين ما هو معمول به وما يجب ان يكون معمولا به . وتمسكها هذا دليل على استعدادها الفطري للقيام بالواجب أو بما تظنه واجباً ، كما انه دليل على افتقارها الى تعديل تصورها لماهية ذلك الواجب

ومن الصفات النادرة بين النساء الاستقامة - أي توافق القول والعمل . فتراهن في الغالب كثيرات المواربة والمداجاة ، ولا سيما متى شئن التخلص من فرض غير مستحب اليهن . قال ديدرو : « كأنهن يعملن بمذهب ماكيافلي (وهو المذهب القائل بان الغاية تبرر الواسطة) فحيث يحول دون اقدام الرجل حاجز منيع لا ترى المرأة الا نسيجاً عنكبوتياً » . وقال فنلون نحو ذلك إذ بين تصنع

المرأة وقدرتها على الاختلاق والمداهنة وموهبتها العجيبة التي تسهل عليها تمثيل الدور الذي تود تمثيله . على اننا قد رأينا سبب ذلك وعلمنا انه ناشيء عن حالة المرأة التاريخية وضعفها الطبيعي . قال روسو : « المكر موهبة الجنس الضعيف كأنه يستعيض به من ضعفه وقصوره » . وهو أيضاً نتيجة ما تحملته المرأة من الحجر والحبس على ممر الاجيال . الا اننا نجد — حتى بين المستنيرات المستقلات بالرأي — ميلا الى الغش والخدع وتدبير الحيل والمكايد . وقد قال أحدهم ان من كل عشر رسالات ترسل بلا امضاء بقصد النميمة والايقاع تجد ثمانياً أو تسعاً من نساء . الا اننا لا ندري مبلغ هذا القول من الصحة فليس من السهل عمل احصاء في هذا الشأن . وعلى كل حال فواجب التربية واضح جلي من هذا القبيل

غريزة الحق

وما عسى ان نقول عن تلك الغريزة السامية القريبة من غريزة الواجب — نعني غريزة الحق ؟ كثيراً ما تكون تلك الغريزة ضعيفة في النساء فالواجب على التربية ان تقويها لسببين : أولا لجمالها في حد ذاتها وثانياً لانها خير حافظ لشرف المرأة وافضل معين لها على القيام بفروضها . فان الكذب يمهد الطريق لسائر الرذائل

ولا يسعنا انكار ما تتهم به النساء من هذا القبيل انكاراً باتاً . قال لابرويير : « من السهل على المرأة ان تقول ما لا تحسه » . ورأى كنت الفيلسوف الالماني أنه ينبغي للآباء ان يسهروا على اولادهم كي تثبت فيهم سجية الصدق لان الامهات قلما يكترثن

لها . وقد كان من اشتهار النساء بالكذب في القرون الوسطى انهن منعن عن تأدية الشهادة امام القضاء . ولعل آثار ذلك التحذر باقية الى اليوم في منع المرأة عن القيام ببعض الاعمال القانونية

وخليق بنا الآن أن نفحص هذه التهمة عن كثب بعد طرح كل تأثير مكتسب من الوراثة والبيئة . فهل حقيقي ان المرأة دون الرجل من هـذا القبيل ؟ لا بد لنا من التسليم بعجزها عن ادراك بعض الحقائق ولا سيما اذا كان لها مساس بمصلحتها . وقد خبرت ذلك بنفسي فيما يتعلق باباحة الطلاق . فان النساء اللواتي حدثتهن عن هذا الموضوع اظهرن على العموم اشمئزازاً عظيماً كأنهن عددن اباحة الطلاق تهديداً لهن في سعادتهن . ولم اجد واحدة بينهن خاضت هذا المبحث برويّة واعتدال . وعبثاً حاولت اقناعهن بان مبدأ الطلاق ـ وان يكن قبيحاً مرذولا من الوجهة الاخلاقية ـ فهو ضروري للهيئة الاجتماعية في بعض الاحوال الاستثنائية . وقد حدث لسيدة من هؤلاء السيدات ـ وكانت اشدهن مقاومة لاباحة الطلاق ـ ان وقعت ابنتها في حالة اضطرتها الى طلب الطلاق فادركت الام اذ ذاك ما لم تكن لتدركه لولا ان خبرت بنفسها ذلك الموقف الحرج

على اننا لو فحصنا قلوب الرجال هل نجدها يا ترى اقرب من قلوب النساء الى الحقيقة والصدق او على الاقل هل نجد بين الجهتين فرقاً جديراً بالذكر ؟ هـذا ما اشك فيه وفي الغالب ان كذب المرأة اقل ضرراً من كذب الرجل . على ان ذلك لا يمنعنا من التحوط لهذه الرذيلة في المرأة لا سيما وانها مكتسبة من البيئة

والتربية كما ذكرنا . وهـذا ما يجعل اقتلاعها سهلا . وقد تقدمت نساء كثيرات في هذا المضمار . ولا بد لي من الاعتراف في هـذا المقام بان اصدق شخص أعرفه وابعد الناس في علمي عن المداهنة والمداجاة ليس رجلا بل امرأة

احساس الجمال

لا ريب في ان هذا الاحساس مغروس في فطرة المرأة ـ بل لعله اعم بين النساء واعظم شأناً في حياتهن . فالمرأة عادة تؤثر الحسن الجميل على النافع المفيد . ومهما يكن الامر فلا اقل من التسليم لها بأنها تقضي جانباً كبيراً من يومها وهي تفكر فيما يجعلها حسنة جميلة . ولذا قال كَنْتْ انه يحق للنساء أن يطلق عليهن اسم « الجنس الجميل »

على ان هـذا الاحساس قلما يكون فيهن قرين الابتكار والابتداع بل تجده في معظم الاحيان خاضعاً « للمودة » والعادات المألوفة والاصطلاحات الجارية ـ حتى لقد قال شامفور ان المرأة لا تحب الرجل الا بعد ان تقف على ما يراه فيه الناس لا ما تراه هي فيه . ولئن كان في هـذا القول شيء من الهزؤ فالحقيقة هي ان المرأة قلما تخرج عن الآراء المتعارفة في تصورها للجمال والجميل . وقد تفضل الظرف والرشاقة على الجمال السامي اذا لم يكن مألوفاً ، كما انها في كتب الادب تفضل الخفيف اللطيف على الجدي العويص . وهي تلميذة بارعة سهلة التدريب في الفنون الجميلة ولكن يندر ان تسمو فيها الى مرتبة الابداع ، كما يندر أن تهجر

الاساليب المألوفة والسبل المطروقة . بل انها ـ حتى في فنون الزينة واللباس ـ دون الرجل ابتكاراً واستنباطاً

وقلما تمتاز المرأة بين ما هو حسن في ذاته وما يستحسنه الناس . فقد تتعامى عما في رجل من الادب الصحيح والخلق المتين اذا لم يكن انيقاً في سلوكه ظريفاً في حديثه رشيقاً في حركاته . ولقد عرفت سيدة نقمت نقماً شديداً على رجل وامرأته ـ وهما من خيرة الناس وأسماهم خلقاً ـ لانهما دخلا صالونها ويدها مشبوكة في يده وهو ما عدته السيدة جرماً فظيعاً وزلة لا تغتفر

أما من حيث الانتاج الفني فقد أصبح للمرأة قسط لا يستهان به من الآثار في الفنون المختلفة . على أن ذلك القسط أقل من قسط الرجل بكثير . ولعل السبب الاكبر في ذلك هو تفاوتهما في التربية الفنية فان أبواب تلك التربية لا تزال ضيقة في وجه النساء ولم يتح لهن دخولها الا منذ زمن قريب . وما دامت الفرصة غير متساوية للجهتين فمعرفة الفرق الذي يفصلهما متعذرة

ولكن مما لا ريب فيه ان النساء أخذن يقتفين آثار الرجال في مضمار الفنون . وقد برع منهن غير واحدة في التصوير الا أنهن في الغالب لا يبدعن الا في ضروب التصوير الخفيف كتصوير الطبيعة والزهور والتصوير بالماء والتصوير الدقيق المسمى منياتور (miniature) . ثم انهن يجدن في الجزئيات والتفاصيل على الغالب اكثر من اجادتهن في تأدية منظر عمومي وصورة اجمالية . فكأن براعتهن تمتاز بالرشاقة لا بالقوة . هذا حكم شامل يصح تطبيقه

على جميع الفنون الجميلة ـ وان يكن له بعض الشواذ . وانه صحيح أيضاً فيما يخص الآثار الأدبية . فالا لياذة والأوذيسة وهملت ونحوها ليست من مآثر النساء ، كما أن الصور والتماثيل الشهيرة في العالم ليست من صنعهن

والذي نستخلصه من كل ذلك ان البراعة الفنية في المرأة ضيقة المجال قصيرة المدى . ولـكن ذلك لا يحول دون صقلها وتهذيبها ولعلها بالصقل والتهذيب تسمو الى المرتبة التي بلغها الرجل

الشعور الديني

أما فيما يخص الشعور الديني فقد أجمع الناس على بروزه في المرأة وتمكنه من قلبها . ولـكن شعورها هذا يحفل بالمحسوسات قبل المعنويات . بل قد تتمسك المرأة بصور ورسوم ليست من روح الدين في شيء . وانما اخلاصها وصدق نيتها يغتفران لها تطرفها من هذا القبيل ـ وأنه لجدير بنا أن نحترم كل ماكان فيه سلوى وتعزية للقلب البشري . فالدين ملجأ المرأة الأمين الذي تجنح اليه ساعة الضيق بما فيها من ضعف وخوف وقلق

والمرأة في الغالب تتقبل قضايا الايمان من غير شك أو تردد بل تتعلق فيها بكل جوارحها مدفوعة بغريزة البقاء . أما الرجل فكثيراً ما يفتر ايمانه بما يمازجه من التفكير والتأمل والتفلسف . قال رينان : « تقاوم النساء على الدوام كل تمحيص وانتقاد في المسائل الدينيـة . فانهن لا يصدقننا في هذا الشـأن مهما نقل ونتبجح . وهذا ما يجب أن نسر له . . . »

ان هذا الشعور ذو شأن خطير في حياة المراة . بل انه قوة عظيمة ينبغي تطهيرها وتخليصها من الشوائب التي تخالطها ، حتى يتيسر استخدامها لفائدة المرأة ولفائدة الجمعية البشرية . والمرأة متدينة بفطرتها ولا بد لها من التمسك بايمان مهما يكن نوعه ، بل انها حين تحب تعد حبيبها بمنزلة دين لها فيمازج حبها شيء من الورع والتعبد . وأن لمن المحال اقتلاع هذه الغريزة من قلبها . فنرى من ذلك أن التربية الدينية ضرورية للبنات على الخصوص . وليس أسعد من القلب المؤمن المتيقن من غرض يسعى اليه في غير هذا العالم

الفصل التاسع

ذكاء المرأة

المرأة بطبيعتها شديدة الذكاء . وقد ذكرنا قول احدى الكاتبات الفرنسيات ان أندر ما في فرنسا امرأة غشيمة . على ان المرأة بوجه الاجمال ذكية في كل مكان وليس في فرنسا فقط . فاننا اذا جردنا الرجل من التفوق الذي اكتسبه بتربيته جاز لنا القول بان المرأة ليست دونه في القدرة العقلية باعتبار نوع معيشتها وما لها من الحاجات الخاصة بها . بل قد يجوز القول بانها تفوقه في تدبير الأمور المألوفة التي تمسهما معاً

ففي طبقات العامة ولا سيما بين أهل المزارع والحقول كثيراً ما تكون المرأة وحدها ربة الدار ومديرة المنزل (وان لم تظهر بهذا المظهر تحاشياً لخدش احساس زوجها) . فانها في الغالب أحذق من الرجل وأبرع منه وأكثر توفيراً وترتيباً . وهي أيضاً أشد منه اهتماماً بالغد وتحوطاً له ، كما انها أكثر عناية بمستقبل أولادها . واذا ألمّ بالدار مكروه عرفت كيف تخفف وطأته . ثم أنها أمهر من الرجل في التخلص من المشاكل التي تعرض لها ولذويها

سل طبيباً من أطباء الريف ايهما أقدر على افادته عند ما يستفهم عن حالة العليل : فكثيراً ما يعجز الرجل عن تقديم البيان المطلوب فيلجأ الطبيب الى المرأة فتعلمه بما يريد — حتى لو كان المريض زوجها نفسه . الا انها تسترسل أحياناً في بيانها

وايضاحها فتقول غير المطلوب . ولكن الطبيب اذا كان ماهراً عرف كيف يستخلص المفيد من غير المفيد

اما في الطبقات المتوسطة ولا سيما بين أهل المدن المعتدلي الحال (bourgeois) فالرجل هو صاحب التفوق العقلي في الغالب . ولكن ذلك التفوق انما يرجع الى تهذيبه وتثقيفه وقلما يتعدى حرفته او مهنته . فكثيرون هم الرجال الذين يصح فيهم قول أحدهم عن بعض العلماء : « انه يتعثر حالما يخرج من مكتبه »

وأما الطبقات العالية فكثيراً ما تتفوق فيها المرأة وتبدي من البراعة والذكاء ما يقصر عنه الرجل لا سيما وانه في معظم الاحيان ينهمك في اللذات الحسية والالعاب والملاهي وغير ذلك

على أن ما ذكرناه فيما تقدم من ذكاء المرأة انما يراد به الذكاء بمعناه العام ، أي القدرة على فهم الحوادث والاشياء التي تعرض للانسان في كل يوم . اما الذكاء بحصر المعنى فيفيد اكثر من ذلك اذ يشمل موهبة التأمل بوساعة ودقة ، والتفكير بنظام وترتيب ، وقوة النقد والتمحيص لما هو متداول من الامور ، والتدرج الى الاحاطة بالمدركات البشرية السامية . فهل في المرأة كفاءة لكل ذلك ؟ هذا ما نود الاجابة عنه الآن . على انه يجدر بنا قبل ذلك أن نتبين ذكاءها العام وان نقف على مميزاته بشيء من التدقيق

مميزات ذكاء المرأة

يجوز أن يوصف ذكاء المرأة على العموم بكونه « وثاباً » . فانه قليل التأمل سريع الوصول الى النتائج . قالت سيدة تصف ذكاء

جنسها : « قلما نلقن ما نعلمه بل اننا نحزره حزراً » ـ وهو قول يحوي حقيقتين معاً : فذكاء المرأة اولا اشبه شيء بالتنبؤ . ولعله كذلك ثانياً لان المرأة لم تلقن ما لديها من المعلومات ، بل كأن قلة التعليم اذكت فيها ذلك الاقتدار الغريزي لاحتياجها اليه . وقد يكون هـذا الاقتدار ايضاً نتيجة لين المرأة الفطري ومرونتها الطبيعية : فانها مدفوعة بحكم حالتها الى استكشاف الاحساسات واستبانة الخواطر من نظرة او لمحة او اشارة . قال احدهم : « لدى المرأة فطنة بديهية وحذاقة فطرية تقتدحان النتائج بسرعة ويقين معاً وذلك ناشيء عن اضطرارها المستديم الى ملاحظة الرجل ومراقبة نظيراتها » . وقال روسو : « الرجل يسبق المرأة في التفلسف عن القلب البشري ولكنها أحذق منه في استبانة ما تكنه قلوب الرجال : فالمرأة تلاحظ والرجل يتفلسف »

وبعبارة أخرى كأن في المرأة « نوراً طبيعياً » يضيء كل ما يعرض امامها من الحوادث والمشاكل فيعينها في الحال على استجلاء غوامضها . فبينا يكون الرجل مستغرقاً في فحص احدى المسائل تتوصل المرأة في لمحة بصر الى النتيجة المطلوبة

على ان هذه القدرة العجيبة انمـا تصدر عن القلب . قال بول بورجه « يمكن ادخال أي شيء الى عقل المرأة عن طريق عواطفها » وفي هذا القول حقيقة جديرة بالتأمل والاعتبار . فلا ريب في ان قلب المرأة يزيدها فطنة ونباهة ـ وقد قيل ان للقلب احكاماً غير احكام العقل كما ان له قياساً غير القياس العقلي المعروف . قال لامارتين : « ان الله وضع عبقرية المرأة في قلبها » فمنه تصدر

براعتها وصدق نظرها وقوة حجتها . ولله در فولتير القائل : « ان كل فلسفة الرجال لا تعادل عاطفة واحدة من عواطف المرأة » فحرارة العاطفة تتخلل أقوالها وأعمالها جميعاً

نقص ذكاء المرأة

ولكن تلك الحرارة ـ التي هي مرجع ما في النساء من البراعة والسلطان والقدرة على اقناع الرجل واستمالته ـ قد تشوب ما بهن من العقل والفطنة والذكاء . فان العاطفة بطبيعتها تحول دون صفاء الذهن وانصافه اذ تدفع العقل الى الحكم من غير تأمل وتمحيص. قالت مدام نكر دي سوسور : « لا يحكم العقل بالعدل الا في حالة الهدوء . أما اذا كان مضطرباً فحكمه يصدر مشوباً » . والنساء ـ كما لا يخفى ـ يندر أن يكن هادئات ساكنات ولا سيما في سن الشباب . وهذا ما يحملنا على التريب في ما يصدرنه من الاحكام على ما يحببن وما لا يحببن . فلا بد من رزانة العقل ومتانة الخلق للتسلط على الأهواء والعواطف . وانه لمن الصعب على أصحاب النفوس الحساسة ان يلازموا طريق العدل والصواب ولا يحيدوا عنه . قالت الكاتبة المعروفة باسم جورج اليوت : « . . . هكذا يكون أصحاب الطبائع الحساسة . فليست أفكارهم الا اظلالا لعواطفهم » . وحاصل القول ان الذي ينقص ذكاء النساء على العموم انما هو الركون الى « الواقع » والاعتماد عليه

وبقطع النظر عما للعواطف من التأثير في أحكام المرأة تجد فيها عوامل أخرى تحول دون اصابة الرأي وصدق النظر . فمن

ذلك انها كثيرة الملاحظة للدقائق والجزئيات ، وهذا ما يجعل من الصعب عليها أن تدرك الاشياء بمجملها . فقد قيل عنها « أن تبنيها للمنازل يحجب عنها منظر المدينة كما ان تميزها الاشجار يحول دون تصورها للغابة » . فلئن تيسر لها أحياناً أن تدرك في لحظة ما يتعذر على الرجل أن يميزه أو ما يبذل زمناً طويلا في تمييزه فذلك انما يكون بوحي الغريزة ومن غير تأمل وتمحيص . فكأن فطنتها قصيرة المدى قليلة العمق . و بعبارة أخرى أنها سريعة الفهم أكثر مما هي جيدته . ولذا يجوز لنا في الغالب أن نصف ذكاءها بكونه سطحياً . قال شوبنهور : « المرأة مصابة بقصر نظر ذهني وهو ما يجعلها جيدة التمييز للامور القريبة فقط ، في حين أن مدى بصرها محدود لا يتناول ما يجاوز بعداً معلوماً »

لا ريب في أن هذه الأوصاف ـ حسنها وسيئها ـ منطبقة على الذكاء النسائي . فقد اتفق الملاحظون جميعاً في هذا الشأن ولا يخفى أن الفضائل والنقائص مترابطة على الدوام أي أن ما يعد فضيلة ممدوحة من جهة قد يكون نقيصة مذمومة من جهة أخرى . فكأن لهذه المسئلة وجهين . على ان الاختلاف الاساسي بين الملاحظين هو ان بعضهم استرسل في بيان الوجه الممدوح ، في حين أن البعض الآخر توسع في الوجه المذموم . والواقع ان الوجه الواحد يبرز تارة في خلق المرأة وتارة يبرز الوجه الآخر . قالت مدام دي ريموزا : « ينقصنا نحن معشر النساء ترابط الافكار وتماسك اطرافها حين نخوض المسائل العامة ـ وان نكن سريعات الادراك بما منحناه من حدة الذكاء ، حتى لقد نميز ما يميزه الرجال

بل قد نفوقهم تميزاً ـ فاننا شديدات التأثر والانفعال . وهـذا ما يبعدنا عن الانصاف وصدق النظر ومتانة الحكم ومن الصعب علينا ان نتأمل طويلا في احد الموضوعات . . . » وقالت مدام دي لامبير نحو ذلك وهو قولها : « ان قدرة العقل على الفحص والتأمل ناقصة في المرأة لان العاطفة المسيطرة عليها تلهيها وتستهويها . . . كأن الافكار تأتيها جاهزة فتترتب في ذهنها وتنتظم فيه بوحي الغريزة لا بالتأمل . . . » . وقالت اخرى : « تنقصنا قوة العقل التي تجوز القشور الى الاصول »

كل هذه الاقوال تعلل لنا ما اشتهرت به المرأة من الطيش والتنقل والخفة العقلية ـ حتى أن أقدر النساء وأعقلهن لم يسلمن من هذا النقص . حدث غوته الشاعر الالماني عن مدام دي ستال الأديبة الفرنسية انها زارته يوماً (وكانت تتردد عليه أثناء مكوثها في ألمانيا منفية من فرنسا) وأخبرته حال وصولها ان نابوليون ـ وكانت تسميه الطاغية ـ القى القبض على القائد مورو وبعض رفاقه بتهمة الخيانة . قال : « وكنت ـ أسوة بغيري من الناس ـ أهتم لامر ذلك الشخص السامي الخلق (أي مورو) فمكثت أفكر في ما مضى من الحوادث لاستخرج منه نتيجة أو حكماً . . . ولكنها لم تلبث ان هجرت هذا الموضوع وأخذت تتحدث عن أمور تافهة لا شأن لهـا . أما أنا فكنت مستغرقاً في تأملاتي ولم يحضرني ما أجيب به على حديثها فغضبت لذلك ولامتني على ما طالما شكت منه فيّ وهو اني « عابس كعادتي ولا تمكن محادثتي بحبور وانشراح » ولكني لم أصبر على قولها هذا فقلت لها : « حقاً

انك لا تستطيعين ان تعني بشيء عناية جدة . فقد بادرتني بصدمة شديدة وتريدين مع ذلك ان أجاريك في رغباتك المتغيرة وان انتقل معك على الدوام من موضوع الى آخر ؟ » اه . ان لهذه القصة مغزى ولا سيما ان مدام دي ستال لم تكن بين النساء دون غوته بين الرجال بل انها من أندر بنات جنسها فطنة وعقلا

على اني مع كل ذلك لا أسترجع شيئاً مما قلته آنفاً . فانها لا تقل ذكاء عن الرجل وان اختلفت مظاهر ذكائهما كما رأينا . وقد آن لنا ان نرد هذا الذكاء الى عناصره التي يتألف منها مقابلين في كل ذلك مواهب الرجل بمواهب المرأة

الادراك

ان قوة الادراك بمعناها الفلسفي المحصور — وهي القوة العقلية التي تبين لنا المبادىء الاساسية البديهية (كمبدإ السببية اي انه لا بد لكل حدث من سبب ، ومبدأ المناقضة اي انه يستحيل اجتماع صفتين متناقضتين في الشيء الواحد) — مشتركة على السواء بين الجنسين . وهي لازمة للعقل البشري اصيلة فيه ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء . ولولا هذه الوحدة لاستحال تفاهم البشر وتوافقهم المعنوي

فما الذي ينقص المرأة اذاً ؟

ليس ما ينقصها دقة الحواس . فكل ما كتب في هذا الشأن لا يؤدي الى نتيجة مفيدة . وهب اننا جارينا القائلين بخشونة حاستي الشم والذوق فيها — وهو ما لم يثبت بعد — فانها ليست دون

الرجل في الحواس الاخرى ـ لا في دقة اللمس والسمع ولا في حدة البصر . ولا ريب في ان هـذه الحواس الاخيرة اعظم شأناً من الحاستين الاوليين فانها تجلب للعقل من المعلومات اكثر مما تجلبان له . ومهما يكن الامر فان القوة العقلية لا تقاس بدقة الحواس وخشونتها . فقلما يكون للحواس تأثير فيها . فلم يكن ارسطو ونيوتن وديكارات على ما نعلم اصحاب حواس ممتازة

الذاكرة

أما فيما يخص الذاكرة فقد اجمع الملاحظون على بروز هـذه الموهبة في المرأة ولعل البعض منهم لم يمنحوها حقها هذا الا ليتيسر لهم انكار مواهبها الاخرى . وهاك من الحوادث والشواهد ما يثبت تفوق الذاكرة في النساء :

لقد دلت الامتحانات العمومية على ان الفتيات يحزن قصب السبق في كل ما يتطلب الحفظ . بل حتى في الموضوعات التي ليس للحافظة فيها شأن عظيم تجدهن ميالات الى اعادة ما يطالعنه او ما يسمعنه حرفياً . وسبب ذلك هو انهن لا يعتمدن على انفسهن بل يؤثرن الاعتماد على ما يتلقنه من الجمل . وقد طلب مرة من التلميذات المتقدمات لامتحان مدرسة المعلمات في فرنسا أن يجبن على السؤال الآتي : « هل تشعرن بميل خاص الى موضوع من موضوعات الدراسة ؟ » فوقع اختيار أربع تلميذات من كل خمس على التاريخ . وفي التاريخ نفسه تجدهن ماهرات متى طلب

اليهن سرد الوقائع وقد يصعب عليهن بيان الاسباب والنتائج والمقابلة بين الحوادث

وفي ذلك ما يعلل لنا ايضاً لينهن وطواعيتهن ونحو ذلك من الصفات التي اجمع المعلمون على امتداحها في الشابات . على اني اعرف استاذاً ما برح يشكو من ذلك لانه لم يتمكن — رغم سعيه المتواصل — من حمل تلميذاته على تسميع الدروس بصورة غير التي اوردها هو او التي اوردها الكتاب . وما سبب ذلك الا انطباع تلك الصورة في حافظتهن . ومن السهل على الاستاذ المحبوب أن يقنع تلميذاته بكل ما يريد اقناعهن به . على ان الضرر عظيم من الاعتماد على الذاكرة وحدها واهمال القوى العقلية الاخرى

ولا يؤخذ مما تقدم ان هذا النقص خاص بمعشر النساء فالله در الشاعر غوته القائل : « ما اندر الاصوات في هذا العالم وما اكثر الاصداء ! » وانه لحقيق بكثير من الرجال ان يقولوا ما قالته مدام دي سيفينيه عن نفسها وهو قولها : « أما أنا فلكوني مخلوقة انيسة اليفة — كما تعهدينني — فانني اكتفي على الدوام بترديد الرأي الاخير الذي أسمعه » . وهذا هو السبب الذي يجعل الآراء الشخصية نادرة بين النساء . فانما آراؤهن في الغالب آراء البيئة التي يعشن فيها . وهو أيضاً سبب ميلهن الى المحافظة على القديم المألوف في كل موضوع

الابتكار

فمن ذلك نرى ان الميزة التي سلم بها ملاحظو المرأة تعود من جهة أخرى فتنقلب عليها وتحول دون نموها العقلي . فقد أنكروا

عليها جميعاً قوة الابتداع والابتكار . ولخص هذه التهمة الاستاذ كرل فوجت السويسري في مقالة جاء فيها انه لا يؤاخذ تلميذاته بالكسل فانهن ـ بعكس ذلك ـ « مثال الانتباه والاجتهاد » فضلا عن مواظبتهن على حضور الدروس وتدوين المذكرات . وانما الذي ينتقده عليهن هو تلك الطواعية العمياء . قال : « .. يدلني اختباري على ان الشابات يفقن الشبان عموماً في الامتحانات . ولو لم تخرج الاسئلة عما قيل في الصف أو ورد في الكتاب لكانت نتيجتهن باهرة على الدوام . ولكنهن قد يعجزن عن الجواب اذا أتاهن السؤال موارية فيتلعثمن حالما يستدعي الأمر تفكيراً شخصياً » . ونتيجة بحث الدكتور فوجت هو ان المرأة قادرة على خزن المحفوظات ولكنها قاصرة فيما يخص ابتكار العقل واختراعه

على ان أحد زملاء الدكتور فوجت خالف رأيه (في مقالة نشرت بعد تلك المقالة) فقال : « يندر ان تجد ذاتية بارزة في التلاميذ عموماً سواء في ذلك الشبان والشابات » . ولما كانت هذه المسئلة ذات شأن خطير يجدر بنا ان ندقق في درسها . ولكي تسهل علينا هذه المهمة ينبغي لنا الابتداء بدرس المواهب الاخرى المرتبطة بهذا الموضوع كالخيال وحب الاستطلاع والكفاءة للبحث العلمي

الخيال

للنساء على الاجمال خيال قوي يحملهن على المبالغة في كل شيء ـ في متاعبهن وهمومهن ومخاوفهن وآمالهن الخ . وان لمن

الصعب عليهن ان يرين الاشياء كما هي في الواقع من غير تعظيمها على صورة من الصور

وقد أجمع الملاحظون على عد الخيال من مميزات المرأة البارزة فيها ـ وهو ما يجعلها متنقلة مضطربة على الدوام . قالت مدام دي لامبير : « لما كانت الاعمال الجدية محرمة على النساء فقد برزت فيهن قوة الخيال كأنها تعيضهن من سائر المواهب الاخرى . فهي تعظم في المرأة ما يطرأ عليها من لذة وألم عشرة أضعاف قدره ـ هذا اذا لم نخلقه من أوله الى آخره . . . ولا أنكر ان هـذه الموهبة ـ اذا عُدّلت وكبحت ـ ادت الى انقاص احساس اللذة لانها تحلي الاشياء بسربال من الجمال والبهاء (وان يكن وهمياً) . ولكن ما اكثر الآلام التي تحدثها لنا أيضاً ! انها تحول دائماً بينك و بين الحقيقة . فلا أثر للعقل حيث يسود الخيال . وحبذا اتفاق مع هذه القوة يعيد اليها لذاتها مقابل ابطال الآلام التي تأتينا بها . فليس من حائل دون السعادة أعظم من الخيال الملتهب »

أجل ان سلطة الخيال على المرأة عظيمة ـ ليس على أحكامها فقط بل على ارادتها أيضاً . ثم ان الخيال يشت ويتسع مجاله في حالة الضعف الجسماني والانحطاط العصبي . فلا بد من تعديل هذا الميل الفطري في المرأة . ولا معدل له أفضل من سلامة الذوق وتوازن التربية . ولولا هـذا المعدّل لظل الخيال منشأ الاوهام والاخطاء على انواعها . وهو ما تقع فيه المرأة كثيراً

على ان الخيال ليس مقصوراً على هذا النوع الاسفل الذي يكتفي بتضخيم ما يعرض للعقل من الحوادث والاشياء . فان هناك

خيالا أسمى منه وهو الخيال « المبدع » الذي به قوام النبوغ والعبقرية . فهذا الخيال لا يقتصر على تكوين الصور وتعظيمها بل يوفق بينها ويدمجها بعضها في بعض ويستخرج منها صوراً جديدة . هذا هو سر الاختراع والابتكار . ولا جدال في ان المرأة متخلفة في هذا المضمار . فقليلة هي الاختراعات المسجلة باسماء النساء . ورغم انصرافهن الى الفنون الموسيقية لم يبرز بينهن مؤلفة عظيمة . كذلك يندر ان نجد بينهن شاعرة فحلة

ولكني اعتقد ان القسط الاعظم من هذا القصور راجع الى تاريخ المرأة وتربيتها الماضية . فان من يتتبع تقدم النساء في السنوات الاخيرة — أي بعد ان فتحت لهن أبواب السعي والعمل — يجد بينهن غير واحدة ممن نبغن في الفنون الجميلة على اختلاف انواعها . وذلك يبشرنا بمستقبل زاهر للمرأة من هـذا القبيل . فلنمتنع عن التضييق على الطبيعة البشرية فان فيها قوى كامنة تتفجر أحياناً بزخم لا يتوقعه أبصر الحكماء . واي قصة أعجب من قصة جان دارك تلك الراعية الامية التي توصلت وهي في العشرين من عمرها الى قيادة جيش عظيم بمهارة فائقة ! . . .

حب الاستطلاع

ان رغبة الاستطلاع مبدأ كل علم . فحين يتعجب الانسان مما يراه حوله وحين يشعر بدافع يدفعه الى المعرفة والتعليل اذ ذاك تنمو فيه جرثومة العلم . فهل هذه الموهبة من مواهب المرأة ؟

لا ينكر اولا انها نادرة بين الرجال . ولـكنها بلا ريب أندر

بين النساء . هذا اذا عنينا بحب الاستطلاع ذلك الدافع الداخلي الذي يدفع صاحبه الى استكشاف الخفايا واستجلاء الغوامض والذي يحثه على استخراج الحقيقة من مكامنها في الطبيعة والاجتماع . فهذا هو الدافع الذي يكوّن العلماء والمخترعين . أما حب الاستطلاع الذي يحوم حول الامور التافهة والأحاديث المتناقلة ونحو ذلك فانه اظهر في النساء بوجه الاجمال كما ذكرنا . على ان هذين النوعين — وان يكونا مظهرين الغريزة واحدة — فقد أصبحا متناقضين ومن المحال اجتماعهما في شخص واحد : فالنوع الاسمى يطرد الأدنى والادنى يطرد الاسمى

ويؤخذ من تراجم مشاهير العلماء ان غريزة الاستطلاع تبرز فيهم منذ حداثتهم . فقد كان لي رفيق في المدرسة اطلع يوماً على قائمة أحرف هيروغليفية فعاهد نفسه من ذلك الحين — بلا أقل حث او تشجيع ، بل من غير اطلاع أحد على نيته — أن يدرس تلك اللغة . فكان كلما اجتمع لديه قليل من الدراهم قصد بائعي الكتب القديمة ليشتري منهم ما له علاقة بلغة مصر وتاريخها . وظل على ذلك عشر سنوات متتابعة . وفي ذات يوم ذهل رفاقه فجأة من مهارته في هذه المباحث . وقد اصبح بعد ذلك اكبر ثقة في التاريخ المصري القديم — ألا وهو غاستون مسبرو العلامة الشهير . فمثل هذه الموهبة الفطرية للاستطلاع والاستكشاف نادرة جداً بين النساء — ان لم تكن معدومة بالمرة . على انه ينبغي ألا يبرح من ذهننا انها نادرة كذلك بين معشر الرجال . والذى اراه في هذا الموضوع انه لو أتيح للنساء الانصراف الى الاعمال الجدية

واصلحت تربيتهن ومعيشتهن لسما ما فيهن من حب الاستطلاع وانتقل من مرتبته السفلى الى مرتبته العليا

الكفاءة للبحث العلمي

واذا سلمنا للمرأة بحب الاستطلاع فهل نسلم لها بالكفاءة للبحث العلمي ؟ ان هذه الكفاءة تقوم بقوى التجريد والتعميم والحكم — وهي القوى التي ينكرها سواد الملاحظين على المرأة إذ يقولون انها كالطفل تكره المعاني المجرّدة (أي التي ليس لها مدلول محسوس) وتعجز عن استخراج الافكار العامة والاحكام الشاملة

ان في هذه التهمة قسطاً من الصحة . ولكننا اذا تمسكنا بمعناها الحرفي وجدنا اداة واهية الاساس . فان من السهل تعليم المرأة العلوم الرياضية كالجبر والهندسة وغيرها . وقد كانت شهادة الليسانس في الرياضيات اولى الشهادات العالية التي حازتها النساء في فرنسا . وكثيراً ما يُعلمن تلك العلوم بحذق ومهارة . ويطول بنا الشرح لو أردنا سرد أسماء النابغات في العلوم من قديم الزمن فنقتصر على بعض الامثلة : ففي القرن الثامن عشر نبغت عالمة اسمها لورا باسي في مدينة بولونيا بايتاليا فجازت امتحان الدكتورية في الفلسفة وهي في الحادية والعشرين من عمرها ثم جلست على كرسي التعليم في جامعة بولونيا وعلمت الفلسفة فيها وظلت في مركزها هذا بعد ان تزوجت ورزقت عدة اولاد . ومن هذا القبيل ايضاً مدام كوفالنسكا التي توفيت حديثاً فقد كانت أستاذة

في جامعة ستوكهلم واشتهرت ببراعتها الفائقة في الهندسة . وقد تخرج على يديها نفر من علماء هذا العصر ومنحتها اكاديمية العلوم الفرنسية الجائزة الكبرى للعلوم الرياضية سنة ١٨٨٨ . وقس على ذلك أمثلة اخرى لا محل لذكرها

فمن هذا نستنتج ان المرأة قد تنبغ في العلوم الرياضية وانه ليس في طبيعتها حوائل دون نبوغها في هذا المضمار . وليس الفرق بينها و بين الرجل من هذا القبيل الا فرقاً نسبياً فقط وهو ناشيء بلا ريب عن نوع المعيشة والتربية والعادات

ولكن هل نستنتج مما تقدم ان التهمة التي ذكرناها عن قصور المرأة في ادراك المعاني المجردة واستخراج الافكار الشاملة باطلة لا أساس لها ؟ كلا . بل لا تزال هذه التهمة صحيحة ولكن قد تبين لنا الآن مجالها وتحددت أوجهها . فقد تبرع المرأة في مضمار الاعداد والمقاييس اذا وفقت الى من يحسن تعليمها وارشادها ولكنها قلما تبرع في استقصاء اسرار الظواهر الطبيعية والاجتماعية وليس من السهل عليها أن تستخرج الاحكام العامة من الحوادث المفردة . ولا غرابة في ذلك فان ما علمناه من اخلاق المرأة يمهد لنا سبيل توقعه : فقد رأينا انها قلما تعنى بغير المحسوس وانه يندر ان تحفل بالآراء العامة ، ورأينا أيضاً ان ذكاءها فطري غريزي مستمد من القلب لا من العقل . فمن ذلك نستنتج ان المرأة تكره المعنى المجرد والدرس التحليلي ، وانه يصعب عليها الانتقال من الخاص الى العام ومن الفردي الى الاجمالي ، وان لا صبر لها على ملازمة قواعد القياس المنطقي لما تجده فيها من النشوفة . والنساء

اللواتي كتبن في هذا الشأن قد اعترفن جميعاً بذلك . قالت سيدة مستنيرة رداً على سؤال ألقيته عليها : « ليست قواعد القياس المنطقي من صنع المرأة ولا هي مصنوعة لاجلها » . وقد القى العلامة ريبو الشهير أسئلة على بعض النساء ليستدل بها على تصورهن للمعاني المجردة كمعنى « السبب » ومعنى « العدد » فوجد انهن على الغالب لا يتصورن تلك المعاني الا في صور محسوسة ـ أي انهن لا يدركنها مجردة بل مقرونة باشياء وحوادث واقعة في دائرة اختبارهن . وانه ليتعذر عليهن تجريد تلك المعاني وادراكها وحدها بقطع النظر عن تلك الاشياء والحوادث

ومثل ذلك يقال في الحكم . فليس التروي في الاحكام من صفات المرأة . بل كثيراً ما تثب من المقدمة الى النتيجة وثبة واحدة ، أو قد تعتمد على براهين لا قيمة لها من الوجهة المنطقية ، فتعد يقينياً ما يفتقر الى الاثبات ، وتصغي لوحي قلبها في حين ينبغي أن يكون الحكم للعقل وحده ... الى آخر ما هنالك من العوامل المضللة للبصيرة . وليس أتعب للرجل العاقل الرزين من مجادلة امرأة ـ مهما تكن مثقفة مستنيرة ـ فانه من الصعب عليها تتبع حلقات الجدال وحصر كلامها في موضوع المناقشة . كنت ذات يوم احدث سيدة عن مواعظ ألقاها احد مشاهير الخطباء في موضوع « الفقر » . فقلت لها ان الخطيب أجاد في الكلام ولكن ليس في معانيه ما يعد جديداً وقد كان الجمهور يتوقع غير ما سمع . فاجابتني على الفور : « ولكن يا سيدي اذا ألغيت الاحسان من العالم فما الذي يحل به حينئذ ؟ » كأني بانتقاد

الخطيب قلت بابطال الاحسان . فهذه القصة مثال لما يحدث كثيراً من خروج السيدات عن الموضوع الذي يدور عليه الحديث

وهاك مثلا آخر — ولعله أدل من المثل الاول : دار الحديث يوماً بيني وبين سيدة وفتاتها على موضوع الزواج . فقالت الفتاة : « لا أتزوج الا اذا وجدت رجلا كوالدي » فاجبتها : « . . . ولكن يا صديقتي هل تظنين أنه من السهل العثور على من يشبه والدك ؟ » وما كان قصدي من هذا القول الا أن ابين لها مقام والدها في نظري . على اني علمت بطريق الصدفة فيما بعد أن الفتاة ذرفت دموعاً غزيرة في ذلك المساء اعتقاداً منها — كما قالت — « اني لا احبها واني لا أريد سعادتها »

فليس ما هو ألزم للسيدات من التدرب على القياس العقلي الصحيح وعلى التروي في الحكم وتمحيص الادلة والبراهين وتمييز المثبت من غير المثبت والمرجح من اليقيني . فلئن لم يتسنّ ذلك إلا لافراد قليلين فانه اندر بين النساء ولذا كانت حاجتهن الى الاصلاح اعظم

الخلاصة

وخلاصة هذا المبحث ان لدى المرأة قدراً عظيماً من الذكاء وان ذكاءها حاد « وثاب » . ولكنه مع ذلك — بفعل الطبيعة وفعل التربية — قليل العمق قصير المدى ، كما أنه قليل التروي سريع الوصول الى النتائج . ومن أوصافه أيضاً أنه دقيق اكثر منه متين وفطري اكثر منه اكتسابي . وليس هذا كله حجة

للاحجام عن تثقيفه وتقويته بل الامر بعكس ذلك فليس من غرضنا مجاراة شربوليز في قوله : « تحمل المرأة علمها كما تحمل ساعتها ـ فانها لا تحملها الا ليعلم الناس بوجودها وان لم تدر قط أو لم تدر بانتظام » بل اننا نقول مع مدام دي منتنون : « ليس علمها الا نصف علم لانها تكتفي بحفظ ما تتلقنه بلا فحص ولا تمحيص ومن دون أن تستكشف شيئاً بنفسها ، في حين أن هذا هو أساس المعرفة الجيدة »

والذي أراه أن ما في المرأة من الذكاء الفطري والمهارة الطبيعية يفوق بلا ريب ما تكتسبه من العلم والمعرفة . فينبغي ألا يكون تعليمها قاتلا لما فيها من السجايا الغريزية . فلئن كانت مواهبها العقلية مختلفة عن مواهبنا فانها تمتاز على الخصوص بذلك الذكاء المرن الذي يجعلها ماهرة في حسن التخلص قادرة على حزر الرغائب الخفية والنزعات الكامنة

ولذا تبرع المرأة في فن الحديث كما تبرع أيضاً في كتابة الرسائل الودية ـ وليست المراسلة الا حديثاً مكتوباً . ولكنها مقصرة في ما يستدعي صدق النظر وصحة القياس وضبط المنطق . وعلى الاجمال تبرع النساء في الادب اكثر من براعتهن في العلوم

على انه من الميسور تدريبهن شيئا فشيئاً على طرق التفكير العلمي الصحيح واصلاح ما فيهن من الطواعية الزائدة والقابلية للاستهواء وكل ما من شأنه حملهن على تصديق ما يقال أمامهن بلهجة التأكيد من غير نقد او تمحيص . ان هذه المهمة شاقة بلا ريب . ولن يتم هذا الاصلاح في جيل واحد فليس المطلوب فك

القيود التي تربط عقل المرأة وانما المطلوب تهذيبه وتدريبه على الطرق القويمة . ويتعذر علينا منذ الآن معرفة مدى الرقي الذي تصل اليه المرأة اذا انتهجت هذا المنهج . فلندع ذلك للايام تبينه وتستجليه . والاجدر بنا ان نترك للمرأة نفسها تحديد ذلك المدى لا ان نحدده نحن بأثرتنا واستبدادنا

وعلى كل حال ليس المطلوب من النساء ان يجاربن الرجال في البحث والتنقيب . فتقدم البشرية لا يتم في معمل العالم وحده أو في مكتب الفيلسوف . ولا بد من معاونة النساء في هذا السبيل . فليست غاية المرأة القصوى ان تكون عالمة أو فيلسوفة بل يكفيها ان تحيط بما بلغته البشرية من اوجه الرقي العلمي والفلسفي وان تقدر ذلك حق قدره . فان عنايتها بهذه المواضيع كافية وحدها لحمل الرجل على ايضاحها واستجلائها — وأي حاجة فيما سوى ذلك تحملها على انتاج الآثار الادبية والعلمية ؟ فالواجب عليها اولا ان ترينا كيف نحسن معيشتنا وكيف نستلذ ما في الحياة من طيبة وجمال ومحبة . ولعل ما في المرأة من روح المحافظة على القديم ملطف لتهجم الرجل على المجهول الجديد — ومن شأن ذلك حفظ التوازن المعنوي بين البشر

الفصل العاشر

ارادة المرأة

لقد وصلنا الآن الى القسم الاخير من الاقسام الثلاثة التي تتألف منها الحياة الذهنية . فقد درسنا احساس المرأة ثم درسنا ذكاءها . و بقي علينا ان ندرس ارادتها وما يدخل في ذلك

تعريفات تمهيدية

وظيفة الاحساس في الحياة قبول التأثيرات التي تدفع الى العمل ، و وظيفة الذكاء التمييز والارشاد قبل الاقدام عليه . و بعبارة اخرى ان الاحساس يحثنا على العمل والذكاء يهدينا الى الطريق الملائمة له . أما الارادة فانها تنفذ ما نطلب و نبتغي . على انه يجب ألا يبرح من الذهن ان هذا التحليل مختلق لان تلك العناصر لا تبدو مستقلة بل تظل مركبة متداخلة على الدوام . فاننا في كل لحظة من حياتنا نحس ونفكر ونعمل معاً . وانما الفرق في استظهار احدى هذه القوى على سواها و بروزها عليها

ولا يخفى ان فريقاً من الفلاسفة ينكرون حرية الارادة في الانسان و يعدونه بمنزلة الآلة الميكانيكية التي تحركها قوى مختلفة فتتجه مضطرة في جهة القوة الغالبة أو في الجهة التي تتعين من تفاعل تلك القوى . ولكنني ممن يرون خلاف ذلك الرأي فاني

بضعت نفسها بموسى لتموت معه وقد تدوركت وهي مشرفة على الهلاك . وذكر تاسيت ايضاً قصة امرأة رومانية دبرت مؤامرة فلما طلبت للمحاكمة خنقت نفسها كي لا تجبن أمام قضاتها كما جبن زملاؤها الذين أخذوا يتنصلون من الامور المنسوبة اليهم ليتهموا بعضهم بعضاً . وخبر الهنديات اللواتي كن يحرقن أنفسهن أثر موت أزواجهن مشهور عند الجميع . والتاريخ ممتلىء بالحوادث التي هي من هذا القبيل . بل كثيراً ما قاتلت النساء بجانب الرجال ولا سيما في ايام الثورات والانقلابات مما يضيق المقام عن سرده[1]

ولئن كانت هذه الحوادث استثنائية فانها كافية للدلالة على أن طبيعة المرأة لا تحول دون متانة خلقها وسمو نفسها . ثم ان لها جرأة من نوع مخصوص ولا سيما متى اقتضت الحال جلداً وصبراً. فهي بارعة في هذا الضرب من الشجاعة وشتان فيه بينها وبين الرجل . و بعبارة أخرى انها تبرع في ما يتطلب منها ان تقاسي وتعاني اكثر من براعتها فيما يستدعي النشاط والاقدام

على ان هناك امراً يجب ان يكون مانعاً لمعشر الرجال من رمي المرأة بالجبن . وهو حطة الغاوي الذي يحجم عن منازلة من يوازيه قوة فيستنزل الفتاة الضعيفة الى هاوية الفساد حتى اذا نال منها وطراً لم تؤثر فيه دموعها ولم يرق لتوسلها واستعطافها . ومع ان الرأي العام لم يتنبه بعد لدناءة هذا العمل وشناعته فلن تجد خسة تهبط بالانسان الى أسفل من هذا الدرك

---

(١) أنظر مقالة النساء المقاتلات قديماً وحديثاً في الهلال سنة ٢٦ صفحة ٣٢٩

قوة البت والتقرير

أما قوة البت والتقرير فهي في المرأة على الاجمال أضعف منها في الرجل . فما منشأ هذا الضعف يا ترى وهل ينشأ عن خمول في فطرتها ؟ كلا فانه ينجم في الحقيقة عن شدة اندفاعها . فليس عائقها عن البت والتقرير قعود فكرها وقلة مطاليبها وانما العائق حدة طبعها وكثرة رغائبها وتلون نزعاتها — هذا هو ما يجعلها متخلفة في مضمار الحكم الاستقلالي . ولا يخفى ان الاستقلال في الحكم هو اول ما يكوّن الذاتية المعنوية

ولكي تتحول الدوافع والبواعث التي تحركنا الى أحكام وقرارات لا بد لها من شرطين : اولا ان يستمر تأثير الدافع أو الباعث مدة من الزمن حتى يتسنى له ان يكون بداية سلسلة من الاعمال . ثانياً ان يدخل فيه قسط من التفكير كي يقبله العقل ويوافق عليه . فهذان الشرطان ينقصان المرأة غالباً اما لكثرة رغباتها او لتسلط رغبة واحدة على حياتها . ففي الحالة الاولى تتتابع الرغبات في نفسها من غير ان تستقر على امر . وفي الحالة الثانية تستعبد لهوى أعمى يخضع كل عمل من اعمالها . قال أحدهم : « المرأة إما ان تكون معدومة الجرأة او ان تكون متطرفة فيها » . وكلا الحالتين ضعف خلقي

ثم ان هناك سبباً آخر يمنع المرأة من مجاراة الرجل في قوة البت والحكم وهو ما تتصف به من التقليد وقابلية الاستهواء . فانها بطبيعتها قاصرة عن التفكير وحدها و يندر ان تكون افكارها

غير مستمدة من البيئة والعادة والعرف والرأي العام او من الشخص الذي تحبه وتوقره . لان المرأة مفتقرة دائماً الى من يعينها ويرشدها مادياً ومعنوياً . ولئن أقدمت المرأة احيانا ـ عند ما تفقد سندها ـ على تدبير شؤونها وشؤون دارها وأسرتها فانها لا تلبث ان تشعر بتعب عظيم من جراء ذلك فتشكو امرها للمقربين اليها في حين يعجب الغرباء بقدرتها . واذا تبصرت في حالة الفتيات وجدت ان ذلك النقص الخلقي ـ اي افتقارهن الى المتانة المعنوية والاعتماد على النفس ـ من الصفات المرغوبة فيهن بوجه الاجمال . فالرأي العام يستهجن الفتيات المستقلات صاحبات الذاتية البارزة . وهذا ما ينبغي ملافاته بالتربية الصحيحة التي تقوي في المرأة قوة الحكم والتقرير من دون ان تنقص شيئاً من ظرفها ورشاقتها . ولعل هذه المسئلة اعقد المسائل في تربية البنات

قوة التنفيذ والثبات

ينبغي لنا الآن ان ندرس مقدرة المرأة على تنفيذ ما تقرره وثباتها في الخطط التي ترسمها . ففي هذا المضمار ايضاً نجدها متخلفة عن الرجل . فلقد تحسن المرأة امراً في بدايته ثم تقف عند هذا الحد وتعجز عن مواصلته . اما سبب هذا الضعف الخلقي فليس من الصعب استكشافه . فما هو الا تنقل المرأة في رغباتها، الناشيء ـ كما رأينا ـ عن قابليتها الشديدة للتأثر من أتفه الاشياء . قال ريشتر : « قد ينقاد الرجل لهواه اما المرأة فتنقاد لاهوائها : هذا يتبع مجرًى شديداً وتلك تتلاعب بها مجار متناقضة » . ولذا

كانت المراة موصوفة بتنقل مطالبها وتلون اغراضها . وهي في الغالب لا تتعمد ذلك فانما هذا طبعها الذي فطرت عليه

وقد ذكر ريبو بين امراض الارادة خلق التقلب والتلون فدرسه بالتدقيق والتفصيل . على اننا لا نعده مرضاً نفسانياً الا حين يجاوز الحدود المألوفة . وبهذه الصورة يشاهد في الهستيريات والعصبيات

ودرس ريبو ايضاً ضعف الانتباه وعده كذلك من امراض الارادة ففصل بينه وبين خلق التقلب والتلون . والحقيقة ان الحالتين نتيجة عجز الانسان عن امتلاك نفسه والسيطرة على احساساته ، اذ تكثر فيه الصور الجذابة والانفعالات الشديدة فتتغلب القوى الدافعة على القوى المانعة فيقدم الانسان على العمل من غير روية . قال : « ان الاولاد والنساء وأصحاب العقول الخفيفة لا يستطيعون حصر انتباههم لمدة طويلة لان التأثيرات التي تحدثها الاشياء في نفوسهم ضئيلة »

وجملة القول ان الذي يمنع المرأة من حصر انتباهها في مجال ضيق هو كونها لا تملك انفعالاتها مع كثرتها وتناقضها . ومن شأن ذلك تشتيت الانتباه كما ان من شأنه تنقل الرغبات وتلون الاغراض

ولا يخفى ان الهستيريا من الامراض الشديدة الانتشار بين النساء وان لم تكن خصيصة بهن . وليست الهستيريا الا مرضاً مزمناً يصيب الارادة فيجعل المصاب به متقلباً على الدوام لا يثبت ولا يستكن : فتراه تارة مغبوطا وطوراً مغموماً ومرة لطيفاً وأخرى

غليظاً ـ وبعبارة وجيزة ان اصحاب هذا المزاج لا يستقرون الا على حالة التقلب ، بل كأن عقلهم في فوضى مستمرة

على ان هذا الوصف بعد تلطيفه وتخفيفه ينطبق على السيدات بوجه الاجمال

الجلد

ولكنه جدير بنا ألا نمادى في هذا المقال . فلئن سلمنا اجمالا بان رغائب المرأة متقلبة على الدوام فالعاطفة الشديدة حين تستولي على قلبها تجعلها عظيمة الجلد عجيبة الصبر والاحتمال ـ حتى لقد تفوق أصبر الرجال وأحلمهم . ولا بد لذلك ـ كما ذكرنا ـ من عاطفة تستولي عليها . وقد تكون حباً قوياً او ايماناً شديداً او غير ذلك

ولست ادري هل لاحظ احد قبلي هذه الميزة في المرأة . فانه يتراءى لي انها تملك نفسها في الحوادث الخطيرة اكثر مما تملكها في الحوادث التافهة ، وانها تقدر على مقاومة الانفعالات الشديدة اكثر من قدرتها على مقاومة الانفعالات الخفيفة . كأن خفتها وتنقلها لا يتجاوزان الطبقة السطحية من حياتها . فانه يندر ان تجد امرأة لا تضطرب لدى مشاهدة فأرة او صرصور ، في حين ان كثيرات يظهرن في الملمات قدراً عظيماً من الرزانة ورباطة الجأش . فمن ذلك ما حدث على السفينة « أوريغون » وهي تغرق في البحر اثر اصطدامها بسفينة اخرى سنة ١٨٨٦ فقد شهد احد الركاب ان النساء أبدين في تلك الساعة الحرجة من رباطة

الجأش وقوة النفس اكثر مما ابدى الرجال . بل هـذا هو المألوف في معظم الحوادث التي من هذا القبيل . ومع ذلك قد تفقد المرأة رشدها بازاء حادث ضئيل الشأن . فانها حين تركب عربة ـ مثلاً ـ تهب من مكانها لاقل طارىء كازدحام الشارع او تلامس العربات او نحو ذلك . ولكنك في الشدائد تجدها رزينة جلودة ولا سيما اذا لم يكن مفر منها مثل ما يحدث في ازمنة الاوبئة

وتستطيع المرأة احتمال الفقر الى درجة عجيبة وخصوصاً اذا أعينت على احتماله بشيء من الدراية والعناية . على انك من جهة أخرى قد تجد بين النساء من يحملن ازواجهن على ارتكاب الدنايا ليتيسر لهن البذخ والانفاق . ولكني في مثل هـذه الحال ألوم الرجل الذي ينقاد الى امرأته اكثر مما ألومها هي لان عليه تقع تبعة سلوكها في معظم الاحيان

فبهـذا الاعتبار يجوز لنا القول بان المرأة تصبر على المصائب الجسيمة اكثر من صبرها على المضايقات الطفيفة ، وان احتمالها للضربات اكثر من احتمالها للوخزات

حدثتني سيدة انكليزية قالت : « ان معظم الانكليز لا يحبون النساء الموظفات في المصالح العمومية كالبوستة والتلغراف لانهم يجدونهن في الغالب دون الرجال صبراً وأقل منهم لطفاً ولا سيما مع السيدات . كذلك يقال في المخازن فقد لاحظوا ان المستخدمين اصبر من المستخدمات على تلبية السيدات واجابة طلباتهن الكثيرة »

ومن العقبات دون قوة التنفيذ في النساء روح الخلط والتعقيد

المألوفة فيهن . فالمرأة ميالة بفطرتها الى المواربة والتطويل و يندر ان ترى الاشياء على بساطتها ، كما يندر أن تسعى الى غرضها من اقرب طريق . قال أحدهم : « يتعذر ان تجد امرأة تقول لك (أنتهى) من غير شرح وتفسير او تقول (نعم) او (لا) من دون الفاء خطبة مستفيضة »

العناد

وما عسى ان نقول الآن عن عناد المرأة المشهور ؟ قال مونتاين الكاتب الفرنسي : « عرفت مئات من النساء تستطيع جلهن على عض الحديد الحامي ولا تستطيع اقناعهن بالتخلي عن رأي أبدينه في ساعة الغضب . . . »

والامثال المتداولة في هذا المعنى كثيرة . منها المثل الفرنسي القائل : « ان من يطلب اصلاح امرأة كمن يطلب تبييض اجرة (قرميدة) » . وليس العناد ثباتاً بل لعل أعند الناس أضعفهم خلقاً . وقد قيل «العناد هو ثبات الضعفاء». فمن الصعب على المرأة ان ترجع عن قولها وتعترف بغلطها وقلما تقول : « أخطأت »

من ذلك نرى ان العناد هو الصورة التي تتجلى بها ارادة المرأة في معظم الاحيان . ولا ريب ان المثل قصد ذلك حين قال : « ما تريده المرأة يريده الله » . فلا بد اذاً من تلطيف هذا الخلق فيها بالتربية الصالحة حتى تملك ارادتها وتسيطر على اعمالها بدلا من ان تكون عرضة للاهواء والانفعالات

الفصل الحادي عشر

مصير المرأة

غرض التربية الاساسي أن تنمي المواهب المغروسة في طبيعة المخلوق المراد تربيته حتى يتيسر له أن يحقق غايته من الوجود . ولذا يجدر بنا اولا ان نرى ماهية تلك الغاية التي تسعى اليها المرأة حتى يتسنى لنا أن نرسم لتربيتها خطة قويمة رشيدة . فما الذي نستنتجه من درسنا لاخلاق المرأة وسجاياها في الفصول السابقة ؟

غاية المرأة من الوجود

ان الجواب الأول على هذا السؤال ـ وهو ما يجيب به العقل على بداهته وما تجيب به الفلسفة الصحيحة أيضاً ـ ينحصر في قولنا ان المرأة جعلت لتكون شريكة الرجل. قالت مدام دي ستال: « ينبغي ألا يبرح من ذهن المكلفين تربية الفتاة انها جعلت لتكون يوماً رفيقة الرجل » . فغايتها القصوى ان تكون زوجة وأماً ، وهو ما يجب على التربية ان تؤهلها له حتى يسهل عليها انتهاج الطريق المرسوم لها وحتى يتسنى لهـا القيام بوظيفتها حق القيام . بذلك تضمن راحتها وسعادتها

* * *

تلك هي الحقيقة التي لا جدال فيها . بل انها على بساطتها أساس النظام الاجتماعي . ولن تبلغ التربية غرضها ما لم تضع تلك الحقيقة ـ مع قدمها ـ نصب عينها على الدوام . واني أطلب الى الله ان يجيرني من اهمال هذا المبدأ الاساسي حباً بطلب الجديد من الآراء . فاني من الذين يقولون بان غاية الرجل الزواج والابوة ، بل اكاد أعد بين المجرمين كل من يحجم عن القيام بوظيفة الرجولة الحقة . فاحرى بي اذاً ان اكون في مقدمة القائلين بمثل ذلك فيما يخص المرأة

أجل . هذا هو اعتقادي اليقيني الصريح . و يكفيني ان أقول الآن ان غاية المرأة في المقام الأول ان تتزوج ان استطاعت ذلك ، وأن تلد أولاداً اذا انعم الله عليها بهذه النعمة ، وأن تربيهم التربية الصالحة القويمة . فالمرأة التي يتاح لها هذا المسلك ونحجم عن سلوكه خليقة بأن نرثي لها من صميم قلبنا

ولا بد لنا من تحديد هذا المبدا الاساسي والنظر فيما يحتمله من التحفظ والاحتراس . فانه مع صحته لا يفصح الا عن جانب من الحقيقة . اذ لا مناص من اشتراك الرجل والمرأة في تأسيس العائلة وليس هذا الامر موكولا بها وحدها . وفي الواقع اننا نجد كثيرات من النساء غير متزوجات ، كما ان بين المتزوجات من لا يتاح لهن أن يكن أمهات ، فضلا عن اللواتي يترملن و يقضين جانباً كبيراً من حياتهن في الوحدة والاعتزال . تلك احوال راهنة لا سبيل الى اغفالها فعلينا أن نحسب لها حساباً في المبحث الذي نخوضه . ومن جهة أخرى هب انه أتيح للمرأة ان تعرف الزواج والأمومة

فينبغي مع ذلك اشراكها في ما يعد أساسياً من خواص البشرية . فكل من الرجل والمرأة يؤلف شطراً من الجنس البشري . وصفة « البشرية » فيهما آصل من صفة الذكورة أو الانوثة . فالرجل انسان قبل أن يكون زوجاً وأباً ، وهو ما يحتم عليه اعتبار صفات الانسانية قبل صفات الرجولة . كذلك ينبغي للمرأة ان تطلب تلك الصفات قبل صفات جنسها الخاصة

ولندرس الآن هاتين النقطتين بشيء من التدقيق

١ — المرأة خارج الحياة الزوجية

قلنا ان الزواج ليس من نصيب المرأة دائماً . فانها تقضي القسم الاول من حياتها في العزوبة . وفي بعض الأحيان تبقى كذلك طول حياتها ، كما انها قد تترمل بعد زواجها . وهذه الاحوال تقف في الغالب على أسباب لا تقع تحت سلطانها . فهل من العدل اذاً ان نقول عنها انها لم تجعل الا لتكون زوجة وأماً ، وانها فيما عدا ذلك عادمة الشأن ؟ وهل من الصحيح أن يكون حكم المرأة من هذا القبيل غير حكم الرجل ؟ وهل تخطىء المرأة غايتها من الحياة اذا لم تتزوج اكثر مما يخطىء غايته الرجل الذي لم يتزوج ؟

كثيراً ما نسمع معشر الرجال يتبجحون بهذا القول ويدعون فيما بينهم ان حياتهم قد تكون كاملة بلا زواج ولا أبوة . بل منهم من يدعون ان العزوبة أشد ملاءمة لرجال الفن والعلم والعمل . تلك في اعتقادي أوهام باطلة . فان الرجل الذي لم يتح له ان يخبر

هموم الزواج ولذاته لا يستحق ان يسمى رجلا بالمعنى التام . وليس ثمت نفور بين الحياة الزوجية والحياة الفنية أو العلمية . ولئن فضل بعض أهل الفن عيشة العزوبة لما فيها من الحرية الموهومة — والحقيقة ان عبوديتها لا تقل عن عبودية الزواج — فانك تجد من جهة أخرى ان مشهوري العلماء ورجال الادارة والسياسة كانوا أزواجاً وآباء ، وان المعيشة العائلية لم تحل دون قيامهم بواجباتهم الخطيرة . بل كيف يجوز الفصل بين الرجل والمرأة في هذا الشأن ؟ ولم لا يكون الصالح له صالحاً لها أيضاً والطالح طالحاً لكليهما على السواء ؟

ولا يظن ظان اني قد تناسيت ما قلته سابقاً من ارتباط المرأة بوظيفتها الخاصة أكثر من ارتباط الرجل بوظيفته . على أن ذلك الفرق نفسه يجب أن يكون مانعاً لنا من التمادي في ظلم المرأة وتعظيم ما نالها من حيف الطبيعة . فهل من الانصاف أن نميز الرجل على المرأة من هذا القبيل ؟ ولم لا نبيح لها أن تختار الحياة التي تحلو لها ما دمنا نبيح له ذلك ؟ واذا كان في العزوبة امتياز فلم لا يمنحها الرجل الحق الذي يمنحه لنفسه ؟ قد يقول ان زواجها ضروري لحفظ النوع . فهل فاته انه نظيرها في ذلك وان شأنهما واحد بحكم الطبيعة ؟ وعندي انه اذا كان أحد الفريقين أحوج من الآخر الى تذكر واجباته فما ذلك الفريق الا معشر الرجال

وفي نظري ان السبب الوحيد الذي قد يحملنا على القول بأن المرأة جعلت للزواج اكثر مما جعل له الرجل وان لا خلاص لها الا بتكريس حياتها لهذه الغاية ، هو ما نراه من اضطرارها في

الوقت الحاضر ـ بفعل التربية والعادات ـ الى الاعتماد عليه ليعولها ويحميها . ولو تسنى ذلك لكل امرأة لهان الامر وحلت المسئلة النسائية على أبسط الصور . ولكن الواقع ان بعض النساء لا يتزوجن . وأسباب ذلك مختلفة ولعل أهمها احجام الرجال عن طلبهن للزواج

فلا بد اذاً في تربيتهن من التحوط لهذه الحالة . لانهن ان لم يعددن الا للزواج فانه يخشى عليهن ـ حين لا يوفقن الى تحقيق تلك الغاية ـ ان يصبحن عالة على غيرهن . أما اذا تعامى الرجل عن هذه الحقيقة وامتنع عن اعداد المرأة لما قد يطرأ عليها من الطوارىء فكأنه يريد اذلالها له على الدوام وتجريدها مما يعينها على الارتزاق في حالة الضيق

ان الحوادث المشاهدة كل يوم تدلنا على ان عدد النساء اللواتي يحتم عليهن الاعتماد على أنفسهن ليس بقليل . وكذلك أيضاً عدد الارامل اللواتي يفرض عليهن تربية أولادهن واعالة عيالهن . فكل ذلك يحملنا على القول من غير تردد انه يجب تاهيل المرأة لمقابلة ما يحتمل أن تقع فيه من تلك الاحوال حتى تستطيع القيام باودها وباود من يوكل اليها أمرهم

هذه هي الحقيقة التي تتجلى لكل من يتأمل في موضوع المرأة بانصاف . بذلك تمنح المرأة قسطاً من الاستقلال الذاتي يرفع شأنها اذا لم تتزوج ، بل اذا تزوجت أيضاً . ولست أعني بذلك الاستقلال ازدراء المرأة بالزواج ، بل قدرتها على الحكم فيه وفقاً لما يتراءى لعقلها وقلبها واستطاعتها الانتظار ريثما يتسنى لها

الاقتران بمن تميل اليه . ولست تجد منصفاً لا يوافق على اصلاح التربية في هذا الاتجاه

٢ ـ مشاركة المرأة للرجل في خواص البشر الاساسية

ولكن ذلك لا يكفي . فاذا سلمنا بان أول غايات المرأة ان تتهيأ للزواج والأمومة فلسنا نسلم بأن ذلك كل غايتها من الوجود

وقد تبين لنا من الفصول السابقة ان المرأة حائزة لجميع المواهب التي يحوزها الرجل ـ وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فان ما بينهما من الفرق في هذا الشأن قدري عرضي وليس نوعياً جوهرياً . وهذا ما يحدونا الى القول بان المرأة كالرجل قابلة للرقي المعنوي من جميع وجوهه . ولما كانت المبادىء الاساسية للتربية والسلوك واحدة في الجنسين وجب ألا يبرح من ذهننا ان للمرأة حقاً في ورود المناهل التي يردها الرجل ومشاركته في ما يتمتع به من اللذات المختلفة بصفة كونه انساناً . ولذلك ينبغي تقوية ما فيها من السجايا الصالحة واصلاح ما فيها من الاميال الفاسدة

هذا ما تقتضيه مصلحتها الشخصية أولا وهو ما تقتضيه مصلحة العائلة أيضاً ومصلحة البشرية جمعاء

قال فنلون : « أليس يقف عليهن (أي على النساء) عمار البيوت وخرابها ؟ بل أليس تدبير المملكة المنزلية من شأنهن ـ وهو ما يجعل لهن اليد الطولى في تكوين المألوف من العادات ؟ . . . وكيف يتوقع الرجل راحة أو هناء اذا تحولت الحياة الزوجية الى مرارة وشقاء ؟ بل ماذا يكون من أمر الاولاد وهم رجال الغد ان

لم تعن بهم والدتهم حق العناية ؟ . . . »

فلهذه الاسباب جميعاً يجب تهذيب المرأة بقدر المستطاع لتضمن كرامتها وسعادتها ـ يجب تهيئتها لتكون زوجة وأماً اذا أتيح لها ذلك ، ولكن يجب أيضاً ان تكون مهيئة للعمل وحدها والاحتفاظ بمركزها حين لا يتاح لها ذلك . فعلينا ان نبذل جهدنا لنجعلها عاقلة رزينة في المقام الاول . وليس ما في طبيعتها من الضعف في الوقت الحاضر حجة لحرمانها من تلك التربية الصالحة بل يجب ان يكون حافزاً لنا ولها على السعي في ازالته

وقد اقتربنا الآن من درس الحركة النسائية التي أصبحت ذات شأن عظيم في هـذا العصر فلندرسها بانصاف معتمدين على المعلومات التي اكتسبناها فيما تقدم

الفصل الثاني عشر

مصير المرأة (تابع)

ما تحتمله حالتها من أوجه التحسين

خليق بنا الآن ان نخوض هذا المبحث الخطير فنستقصي أمر الحركة النسائية التي ما برحت تعظم شأناً في السنوات الاخيرة . على أنه لا يزال في تلك الحركة بعض الغموض والابهام فلم تتفق الآراء بعد في هذا الشأن

ومهما يكن الامر فقد تضخمت هذه الحركة وعظم شأنها حتى لم يعد في الامكان اغفالها ولا سيما ان القائمين بها ليسوا من النساء فقط بل فيهم نفر من أعاظم الرجال . وانا ذاكرون فيما يلي بشيء من التفصيل آراء اثنين من اكبر المفكرين وهما جون ستيورت ميل الانكليزي وسكريتان السويسري

آراء جون ستيورت ميل

كتب ميل كتاباً عن عبودية النساء Subjection of Women عد فيه من الظلم أن تكون المرأة خاضعة للرجل كما هي حالها اليوم بمقتضى الشرائع المدنية والسياسية في جميع الدول المتمدنة

وهو لا يرى لذلك الخضوع مبرراً من الوجهة المعنوية .

وتعليله الوحيد لحالتها الحاضرة هو تاريخها الماضي واستظهار الرجل عليها في القوة الجسمانية . وفي نظره انه ليس من علاج شاف للحيف الذي تحملته المرأة تلك الدهور الطويلة الا المساواة المطلقة بين الجنسين . ويدخل في ذلك تساويهما في ميدان السياسة ـ أي في حق التصويت وحق النيابة

وقبل التوسع في بيان آراء ميل يجدر بنا أن نشير الى تأثير امرأته في حياته . فقد وفق الى امرأة نادرة المثال كان لها أعظم أثر في نفسه . وهي التي أوحت اليه ما جاهر به من المطالبة بحقوق النساء والمدافعة عن قضاياهن ـ وفي ذلك ما يدعو الى التأمل ولاسيما ان ميل كان مشهوراً بالتعقل والرزانة ومع ذلك فقد غالى في آرائه بتأثير العاطفة التي سيطرت عليه

ويتوقع ميل من هذا القبيل ثورة تصلح معها حالة النساء . فلقد هدم البشر في هذا العصر ما كان قائماً بين الطبقات المختلفة من الحواجز والسدود . وهذا هو ما يحمله على الاعتقاد بدنو العهد الذي تعتق فيه المرأة من عبوديتها ـ تلك العبودية التي لا مسوغ لها الا النقائص التي ولدتها هي في خلق المرأة مع توالي الزمن . وقد ذهب ميل الى أن عبودية المرأة أشد انواع العبودية لان السيد لا يدعي حقاً الا على جسم عبده . أما فيما يخص المرأة فالرجل لا يستعبد جسمها فقط بل يذل نفسها وفكرها وعاطفتها . فلا بد من انقلاب اجتماعي يساوي بين الرجل والمرأة في واجب التضحية الذي ما برح محصوراً فيها وحدها . ولا يعقل أن يتمادى المسيحيون ـ الذين يقولون بمساواة جميع البشر عند الله ـ في ظلم

المرأة على تلك الصورة الوحشية . وفي نظره ان معاملة الرجل للمراة قد مرت في ثلاثة أدوار :

أولا دور الخضوع والاذلال
ثانياً دور الشفقة والتسامح
ثالثاً دور العدل والانصاف

وليس ينكر ان من الازواج من هم سعداء راضون بحالتهم لما يسود بينهم من روح العدل والاحترام المتبادل . فهؤلاء يجب عليهم ألا ينفوا ما في غيرهم من صنوف الشقاء الزوجي بحجة انهم لم يخبروها بانفسهم . ولا ريب ان اضراراً جسيمة تنجم عن تبعية المرأة لزوجها وسلطته على ممتلكاتها . ولذا ينبغي أن تملك المرأة زمام نفسها ومالها قبل الزواج و بعده . كما يجب الا تحرم بزواجها شيئاً من نفوذها ومكانتها

أما اذا لم يكن الزوجان من أصحاب الاموال والاملاك وكانت نفقات الدار قائمة على أجور معينة أو ارباح محدودة فالافضل اذ ذاك أن يقسم العمل على هذه الصورة : الرجل يعمل في خارج المنزل للارتزاق والمرأة تعمل في داخله فتدبر شؤونه وتعنى بجميع لوازمه . وبهذا تحمل قسطها من اعباء الزواج — فضلا عن مشاق الامومة . وهب ان الاحوال اضطرتها هي أيضاً للارتزاق فليس من العدل أن تسلم ارباحها الى زوجها ليضيعها في الحانة — وهو المشاهد في كثير من الاحيان [1] . فهذا

(١) قد خولت القوانين الحديثة المرأة حق الاستيلاء على ربحها ولا سيما القانون الفرنسي الصادر سنة ١٩٠٧

الظلم ليس الا نتيجة احتياز الرجل للسلطة السياسية وسنه القوانين التي تلائمه . ولن تكون القوانين عادلة فيما يخص النساء اذا لم يشتركن في وضعها . ولذا لا يرى ميل خلاصاً من هذه الحالة الا بتخويل المرأة حق الانتخاب على وجهيه : اي ان تنتخب وان تنتخب

رأى سكريتان

وقد ذهب سكريتان الى نحو ذلك لاسباب شبيهة بالاسباب التي ارتآها ميل . قال : « ان الشريعة التي وضعها معشر الرجال وحدهم تجعل الزوجة خادمة والفتاة الفقيرة متاعاً » . أما علاج هذه الحالة السيئة فهو مشاركة المرأة للرجل في سن القوانين . قال : « لن تنال المرأة حريتها ما دامت محرومة حق الانتخاب — مهما تكن مقاصد أهل القانون حسنة في شأنها . . . والحقيقة ان الجنس القوي لم يعد المرأة الى هذا اليوم الا وسيلة للتناسل أو مخلوقاً للهو . . . فعلى الزوجة بحكم القانون ان تجلب للرجل جسمها ومالها بلا مقابل . وعلى الفتاة الفقيرة أن تختار بين الموت جوعاً والسقوط في وهدة الفساد كما أن للرجل ان يغويها ويسلبها شرفها . . . ومهما تكثر الاحتجاجات في هذا الشأن فليس يرجى فيه اصلاح حقيقي الا بمنح النساء حق التصويت . ولم يسمع ان طائفة صاحبة امتيازات تنازلت عن امتيازاتها من تلقاء نفسها »

تمحيص المسئلة

ولكن المسئلة ليست على تلك البساطة . فانها شديدة التعقيد وتدخل فيها عوامل مختلفة لا بد من اعتبارها جميعاً . ولا يمكننا ان نفصل مسئلة حقوق المرأة من مسئلة تكوين العائلة التي هي أساس النظام الاجتماعي كله

فلندرس هذا الموضوع بما يستحقه من العناية متجنبين المغالاة في أحد طرفيه . وان من الحكمة في المسائل العملية — ولا سيما فيما يخص السياسة المدنية — « ان يجتنب الانسان تعكير ما هو صاف » على ان ذلك لا يمنعنا من البحث عن مساوىء الحالة النسائية ووصف العلاجات الملائمة لها

أرى من السائغ لنا — أولا — ان نقرر هذه الحقيقة الاساسية وهي ان النساء اللواتي يتزوجن زيجة هنيئة ويعاملن معاملة حسنة لا يخطر لهن التشكي من حالتهن . اذ يحلو لهن الخضوع للرجل فلا يطلبن تغييراً أو تبديلا فيما هن عليه . لانهن يدركن بفطرتهن ان نظام الطبيعة يقضي بذلك . وقد سلم ستيورت ميل نفسه بصحة هذا القول . ومما قاله في هذا الشأن انه لو أتيح للنساء جميعاً أن يتزوجن بازواج صالحين لم نسمع تململهن ولم يكن ثمت أثر للمسئلة النسائية — لا من الوجهة المعنوية اذ لا يخشى مع الحب والاحترام المتبادلين من الظلم والاستبداد ، ولا من الوجهة الاقتصادية اذ يتعاون الزوجان في النفقة بضم دخليهما معاً اذا كانا من أهل اليسر او بعمل الزوج وتدبير المرأة اذا كانا من العامة . فهذا هو مبتغى

الطبيعة الذي لا جدال فيه : وذلك أن يعمل الرجل خارج المنزل ليكسب ما يسد به نفقة الاسرة وان تدير المرأة شؤون دارها بالحكمة وأن تربي أولادها بما يلزمهم من العناية والرعاية

واذا اضطرت الى العمل للارتزاق فذلك في نفسه رزء على الاسرة ولا سيما اذا استغرق عملها معظم وقتها وحملها على اهمال أولادها . فلابد من التحوط لتلك الحالة . كذلك يجب الاهتمام لامر المرأة التي تتزوج من يظلمها وهي عاجزة عن حماية نفسها ، ولامر الفتاة الفقيرة ، واليتيمة العادمة الاهل والسند ، والارملة المسكينة يحيط بها أولادها الجائعون ، والمرأة التي يفرض عليها اعالة أسرتها لطارىء اقعد زوجها ـ فتلك بعض العناصر التي تتألف منها المشكلة النسائية

واذا أمعنا النظر في تلك المشكلة وجدنا انها تنشأ عن ثلاثة أسباب رئيسية :

أولا العزوبة القهرية التي يرغم عليها عدد غفير من الشابات

ثانياً الزيجة الرديئة التي تجعل المرأة تحت رحمة زوج قاس مستبد

ثالثاً الزواج في حالة الفقر والشقاء ، والترمل مع العجز عن القيام باود الاسرة

واعتقادي الصميم انه لو أتيح لنا ابطال هذه الاحوال ـ التي هي منشأ ما تتحمله المرأة من الحيف والالم ـ لزالت اذ ذاك المشكلة النسائية بتمامها . فكل مسعى يرمي الى ملافاة ذلك أو تخفيفه يعد خطوة في سبيل الحل المطلوب . فلنر أوجه الاصلاح في الاحوال

المتقدم ذكرها ولنقابل بين ما تمّ من هذا القبيل وما لم يتم بعد

اصلاح التعليم النسائي

التعليم أول علاج لحالة المرأة بل هو أساس سائر العلاجات . فبالتعليم ـ وبه وحده ـ يتسنى لها أن تنال ما تبتغيه من المساواة المعنوية . وقد شهدنا في العصر الحديث تقدماً باهراً من هذا القبيل ولا سيما في بضعة العقود الأخيرة . فقد خطا تعليم البنات خطوات واسعة حتى اصبح الفرق عظيما بين بنات هـذا الجيل وأمهاتهن وجداتهن . ولئن ظهر في الاجيال السابقة نساء نبغن في الادب فلم يكن ذلك الا من قبيل الشذوذ . فقد كان سواد النساء في حالة جهل شديد ـ سواء في ذلك الطبقات السفلى والطبقات المتوسطة بل اكاد أقول الطبقات العليا ايضاً . فانه كان يكفي المرأة « أن تعرف كيف تصلي وتحب وتخيط وتغزل » كما جاء في احدى الروايات المجونية الشهيرة (١)

أما اليوم فقد انتشر تعليم البنات في جميع الممالك الأوربية . فالتعليم الاولي في فرنسا اجباري ومجاني للبنين والبنات على السواء . كذلك انتشر فيها التعليم الثانوي وكثرت مدارسه ـ الحكومية منها والخصوصية . أما التعليم العالي فمباح ايضاً للشابات في أقسامه الاربعة : الآداب والعلوم والطب والحقوق . والمساواة تامة بين الجنسين في شروط الدخول والامتحانات . والحال كذلك في

(١) Et c'est assez pour elle, à vous en bien parler,
De savoir prier Dieu, m'aimer, coudre et filer

ايتاليا فانها نظيرة فرنسا في مساواتها بين الشبان والشابات من هذا القبيل

أما في المانيا (وفي النمسا أيضاً) فلا تزال معظم الجامعات مقفلة في وجه الشابات . وأما في انكلترا فلهن مدارس عالية خاصة بهن منها مدرسة للطب في لندن فضلا عن الجامعات التي قبلتهن في فرقها . ولكن الجامعتين الكبيرتين (اكسفرد وكمبريدج) لم تقبلاهن رسمياً

ولعل الدول الاوربية الصغيرة أرقى من سواها في هـذا الباب . فالتعليم العالي مباح للبنات في أسوج ونروج ودانمارك وسويسرا وبلجيكا

وجملة القول ان هـذه الحركة ذات شأن عظيم في التاريخ الاجتماعي الحديث . ولا بد أن تشمل البلاد التي لا تزال متخلفة في هذا المضمار . فالتعليم خير علاج لضروب الشقاء من الوجهتين المعنوية والمادية

ولكن لا يكفي أن نعلم الشابات تعليما عالياً اذا لم نأذن لهن بالاستفادة منه . بل قد يضر التعلم ان لم يقرن بالعمل . فلننظر الآن في المهن والحرف المباحة للنساء

اباحة المهن للنساء

أرى في هذا الشأن انه تجب اباحة جميع المهن للنساء ما لم تتهدد هذه الاباحة كيان العائلة — التي هي جرثومة الاجتماع . على ان هذا القول يحتاج الى الايضاح ولا سيما ان فريقاً عظيما من الرجال

يترددون في شأنه ـ لخوفهم تخشن النساء وتغلظ اخلاقهن اكثر من خوفهم منافستهن لهم في سبل الرزق

على اني أعتقد ان هذا الخوف وهمي بدليل ما درسناه فيما تقدم من اخلاق المرأة . بل أرى ان الاستقلال الذي تكسبه المرأة من جراء ذلك لا يعود بالفائدة عليها وحدها فانه يفيد العائلة أيضاً كما يفيد الهيئة الاجتماعية بترقية الاخلاق المألوفة وحمل الرجل على تعديل خطته نحو شريكته . ولو تراءى لي في ذلك المنهج أقل خطر على العائلة لقاومته بكل قواي . ولكني أتوقع من ورائه رفعاً لشان الاسرة اذ تخرج المرأة عن كونها مرغمة على قبول احدى حالتين تتساويان قبحاً وهما حالتا الاسترقاق والاسترخاء ـ أي ان تكون عبدة لسيدها أو اداة للزينة والزخرفة . ولست أرى في احتراف المرأة لاحدى الحرف التي قد تعينها على كسب رزقها حين تضطر الى ذلك ما يهدد الزواج او الاسرة أو الهيئة الاجتماعية

ولكن لئن وددنا أن تباح المهن للمرأة المسترزقة فالافضل لها أن تختار منها ما يلائم طبيعتها ومزاجها وما لا يمس فيها صفات الانوثة وروح الظرف والرقة . فمن الاعمال ما قد جعل للرجال دون سواهم . على ان بعض السيدات الراتعات في الهناء والرخاء يشمأززن من نزول جنسهن في هـذا الميدان . قالت احداهن : « جعلت المرأة لتنظر من تحت الى فوق ولتكون امرأة في المقام الأول . ومن المستهجن أن تبغي النظر من فوق الى تحت وان تكون حامية الرجل » . حسن . ولكن لا يبرحن من الذهن ان أول ما تحتاج اليه المرأة انما هو ان تعول نفسها ـ هذا اذا لم تضطر

الى عول اولادها أو زوجها فضلا عن نفسها . فلا لوم عليها اذا سلكت هذا المسلك وهي مرغمة على سلوكه . وانما اللوم في كثير من الاحيان على الذين يخدمون النساء فيستغنون ما فيهن من صحة ونشاط مقابل أجور ضئيلة لا تقوم باودهن . والحاصل مما تقدم انه تجب اباحة المهن للنساء ولكن تجب حمايتهن من استبداد المخدمين وكل ما من شأنه مس وظيفتهن الاجتماعية

التعليم الصناعي

الصناعة على الاجمال مباحة للجميع ـ الا بعض الصناعات التي تستدعي شروطاً معلومة وهي التي لا يمكن تعاطيها الا باذن خاص كالطب والمحاماة والصيدلة ونحوها . فللمرأة من الوجهة القانونية ان تختار أي مهنة تشاؤها ، وما يسري على الرجل في هذا الشان يسري عليها . ولكن لكي لا تكون تلك الاباحة وهمية يجب ان تفتح لها أبواب التربية الصناعية. وقد أنشئت في أوربا مدارس كثيرة لتعليم البنات الصناعات الملائمة لهن كالصيدلة والرسم والطب والنجارة الدقيقة وزراعة الزهور والتصوير الشمسي وصناعة الساعات والحلويات الخ . . . ولا يزال مجال التقدم واسعاً في هذا المضمار

المرأة الطبيبة

ولا يستسهلن الرجل تحريم بعض المهن على المرأة اعتماداً على

حجج تافهة أو وهمية . فلقد قام جدال شديد على أثر دخول النساء في سلك التطبيب وعد الكثيرون هـذه المهنة خارجة عن دائرة الكفاءة النسائية . ولكني لست أجد ما يدعم هذا النظر . أجل ان العلوم الطبية شاقة تستدعي جلداً ومثابرة ولكن الاختبار قد دل على انها ليست فوق قدرة النساء ولا أرى قط مانعاً عقلياً دون قيـام المرأة بمهمة التطبيب ولا سيما اذا وجهت عنايتها الى الأولاد والنساء

ولعل الافضل لها أن تكون في غنى عن تلك المهنة . ولكنها اذا كانت مضطرة اليها فما المانع لها من احترافها وكيف تسوغ لنا الحيلولة دون استرزاقها ؟ بل بأي حق نسمح لها ان تتوظف في البوسطة والتلغراف والسكة الحديدية ونمنعها من ممارسة التطبيب

واذا قال معترض انه من الصعب على المرأة ان تضطر الى الخروج من منزلها في الليل لعيادة مريض في حالة الخطر او معالجة امرأة على وشك الوضع أو نحو ذلك من الاحوال القاهرة فلينظر الى ما تقوم به المرأة المتحضرة عادة من الزيارات وما تحضره من الاجتماعات ـ في الليل وفي النهار ـ مما لا يجدي نفعاً ولا يعود بفائدة

ومهما يكن الأمر فلا جدال في ان المرأة اقدر من الرجل على مكافحة بعض الامراض ومعالجة بعض الاشخاص

الوظائف العمومية

نريد بالوظائف العمومية تلك التي جعلت لخدمة الجمهور . ويجوز لنا التمييز بين نوعين منها ـ وان يكن من الصعب بيان الحد الفاصل

بينهما : الوظائف العليا التي يباشر أصحابها السلطة الحكومية ، والوظائف الثانوية التي ليس لشاغلها سلطة جديرة بالذكر . وقد قُبلت النساء في الوظائف الصغيرة منذ زمن بعيد ولم يتح لهن بعد — الا في احوال استثنائية — تقلد السلطة الحكومية الفعلية

ولكن الدلائل تدل جميعاً على ان المرأة ظافرة لا محالة في هذا المضمار ايضاً . فانها تشغل اليوم كرسي القضاء في بعض جهات الولايات المتحدة كما انها في فرنسا تراقب التعليم في مدارس البنات العالية وتجلس في «مجلس المعارف الاعلى» الذي له سلطة لا يستهان بها . ولها غير ذلك من الوظائف السياسية والادارية والقضائية في جهات مختلفة

ولا بد مع ذلك التطور من توسيع سلطة المرأة من الوجهة القانونية حتى لا تكون تحت رحمة زوجها وحتى يتيسر لها القيام بالاعمال القانونية التي تهمها من غير الاستعانة به . ولا ريب عندي ان الاستقلال الشخصي خير مدرب على الجد والكرامة . وقد دلت الاحصاءات على تزايد الفساد وتناقص المواليد بين اكثر الأمم حجزاً لحرية المرأة

الفصل الثالث عشر

مصير المرأة (تابع)

مسئلة الحقوق السياسية

لعل هـذه المسئلة أدق المسائل الداخلة في مطالب النساء. فقد راينا أنه من الحكمة اباحة المهن لهن وانشاء المدارس الصناعية الخاصة بهن، فضلا عن ورودهن مناهل الفنون والعلوم والآداب. على اننا لا نود ان نزج المرأة بنفسها دفعة واحدة في هذه الابواب المفتوحة لها حديثاً. فخير الاصلاح ما تم بالتدريج. وفي نظري ان أفضل ما حواه كتاب ستيورت ميل المشار اليه سابقاً هو ذلك القسم البليغ الذي بين فيه ما يكون من شعور المرأة بشأنها وكرامتها ورفعتها حين يتاح لها ان تحيا حياة تامة وتطمح الى حيازة فضائل غير فضيلة الامتناع عن نوع معلوم من الزلات

قال جول سيمون: «اننا في معاملتهن نبدأ عادة بالرفض ثم لا نلبث ان نمنحهن مطالبهن . . . فيجب منحهن كل ما يطلبنه الا اذا طلبن ان يكون رجالا. لان ذلك يكون من شقائنا ومن شقائهن أيضاً»

ولكن ما المراد من ذلك؟ وما هو الحد الذي اذا جاوزته المرأة تعدت على خواص الرجولة؟ وما شان الحقوق السياسية في ذلك؟

لا نستطيع الاجابة على هذه المسئلة بجواب واحد ينطبق على جميع الامم . فانها تتفاوت في المزاج والتقاليد والرقي وما يصلح في واحدة منها لا يصلح حتماً في غيرها(١)

أما فيما يخصنا نحن الفرنسيين فيتراءى لي ان الوقت لم يحن بعد لهذا الانقلاب . وعندي انه يجب الابتداء بمنح المرأة المزوجة شيئاً من الاستقلال في ادارة أمورها بحيث لا تكون خاضعة للسلطة الزوجية ذلك الخضوع الذي يفقدها ذاتيتها و يشل يديها عن كل عمل ، كما انه من الواجب ايضاً حماية الفتاة — ولا سيما الفتاة الفقيرة — من الاخطار التي تكتنفها

على ان بعض زعماء الحركة النسائية يدعون ان اقرب طريق الى اصلاح حالة المرأة — سواء في ذلك المزوجة وغير المزوجة — انما هو منحها حق الانتخاب الذي يخولها السلطة اللازمة لتعديل القانون وجعله في مصلحتها . ولكننا اذا منحنا هذا الحق للعازبات والارامل دون سواهن — كما هو المطلوب في الغالب — كان عملنا هذا مجحفاً بالمرأة المزوجة . فان روح العدل لا تقبل تمييز غير المزوجة على المزوجة في هذا المضمار . أما اذا منحناه للمزوجة ايضاً فانه يخشى اذ ذاك من تراخي الرابطة الزوجية وزعزعة الوحدة العائلية ، في حين ان مصلحة المرأة ومصلحة المجموع تستدعيان توثيق هذه الرابطة وتوطيد تلك الوحدة

---

(١) في آخر الكتاب فصل اضافي بينا فيه حالة المرأة في معظم الممالك المتمدينة

بل هل تغنم المرأة ربحاً حقيقياً اذا فتح لها ذلك الباب ؟ اني ميال الى الاعتقاد بان المرأة تفقد بهجتها ورونقها وبهاءها بل سعادتها ايضا حالما تهجر دارها وتنزل ميدان المنازعات السياسية . فانها انما جعلت لتكون تحت حماية زوجها ولتشاركه في افراحه واحزانه . وترى كثيرات من المستنيرات يشعرن هذا الشعور فلا يعبان بالحركة النسائيـة في صورتها تلك بل بينهن من يقاومنها في الفعل

على ان بين النسـاء من يحين على ذلك بقولهن : « اننا على يقين من ان مساواتنا بالرجل ستفقدنا شيئاً من رشاقتنا وظرفنا وخفة روحنا . ولكننا نرضى بهذا الثمن ندفعه لنيل حريتنا واستقلالنا . وهذا من شأننا نحن دون سوانا »

ولكن هذا القول ليس صحيحاً فان المسئلة لا تخص المرأة وحدها . ولو كان هذا الامر مرتبطاً بمصلحتها فقط لما حق لنا ان نحول دون اختيارها المسـلك الذي يروق لها . ولكنه في الحقيقة مرتبط بمصلحة الاجتماع وهو يمس الاساسات التي يقوم عليها بناؤه

ولعل اشد ما يخيفني من تهور المرأة في هذا الموضوع ما كان من تهور الرجل فيه . فقد دلنا الاختبار وهو يدلنا كل يوم على المساوىء الناجمة عن نظام الانتخاب العام ولا سيما قبل ان يستكمل الشعب تهذيبه السياسي . وهذا التهذيب يستدعي زمناً طويلا كما لا يخفى . واذا كان الرجال ـ مع اختبارهم الطويل ـ لا يزالون متخلفين فيه فكيف بالمرأة التي تعد أميّة في هذا المضمار . ولئن لم اوافق سبنسر على قوله ان المرأة اذا منحت سلطة سـياسية

استخدمتها لمعاونة الاحزاب الرجعية ومناصرة الحكومة التي تعنى بالزخارف والتقاليد فاني اخشى مع ذلك أن تنقضي الاجيال الطويلة قبل ان يتيسر للنساء اكتساب روح العدل والانصاف — وهو ما نشكو من نقصه في معشر الرجال

والارجح ان المرأة — اذا منحت حق التصويت — تسترشد الرجل الذي تحبه وتوقره . فكانها تكتفي بتثنية صوته اذ ذاك . وأما اذا اتفقت النساء على مقاومة الرجال بحيث ينشقق عن ازواجهن وآبائهن واخوتهن فما اقبح ذلك المشهد وما اشد تعس الجماعة التي تهبط الى ذلك الجحيم !

قالت مدام ريموزا : « اننا حالما نقدم على تحريك ساكن في الامور الاجتماعية الجوهرية يبدو فيها التفكك والتقهقر »

أجل لست اعتقد ان تصويت النساء يخفف من مصائبنا بل انه يضاعفها على كثرتها . هـذا ما أراه في شأن الحاضر . اما المستقبل البعيد فلا أجزم في شأنه . ولعل الزمن يستدعي تعديل حكمي السالف . فما علينا الا الانتظار . وقد رأينا في الرجال مساوىء الانقلاب السريع والاصلاح المعجّل . فلتحذر ذلك النساء

قال امار (وهو من رجال الثورة الفرنسية) : « لنعتبر قصور الرجال في تربيتهم السياسية ... أما النساء فلا يزلن دون الرجال استنارة — زد على ذلك ميلهن الفطري الى التطرف وهو ما يخشى ان يكون وخيم العاقبة في المسائل السياسية . . . » ومن ذا الذي ينكر ان هذا التحذير مما يصح

ابداؤه في هذا اليوم ايضاً ؟ وهل من الحكمة ان نزيد ذلك العامل الجديد على عوامل الفوضى السياسية التي نتخبط فيها ؟

قد يتغير هذا الحكم ـ كما قلت ـ بعد زمن طويل . أما اليوم فان لدينا من أوجه الاصلاح ما هو الزم لنا واشد ملاءمة لاحوالنا . وتلك الاوجه كافية لتشغل جيلنا بل لتشغل بضعة اجيال قادمة

بل هل أبوح برأيي الصريح ؟ لا اعتقد البتة ان تلك هي وجهة التقدم . ولكن لا يحملنّ كلامي هذا على غير محمله . فاني في مقدمة القائلين بالمساواة المعنوية بين الرجل والمرأة أي بتساويهما في الشأن والكرامة والتهذيب . فلا خطر مطلقاً من هذا القبيل ما دامت المرأة تدرك انها امرأة ، قبل كل شيء أي انها جعلت لتكون زوجة وأماً في المقام الاول ، كما جعلت لتدير المملكة البيتية وتتولى مهامها وشؤونها حتى تخيم عليها السعادة وتسود فيها المحبة والراحة والطمأنينة

ان المثل الاعلى للبشر يقضي بأن يكون بين الجنسين ارتباط وثيق مع اختلاف وظائفهما . فمائل الجنسين ليس مشاهداً الا في الشعوب المتوحشة . وكلما ارتقى الناس تميز الجنس عن الآخر وتحددت وظائفه . هذا هو بلا ريب اتجاه الرقي البشري والمرأة لا تبغي في الحقيقة غير ذلك . فلنحسن حالتها بكل الوسائل الميسورة ـ في الحياة الزوجية وخارج الحياة الزوجية ـ ولنكن عادلين في معاملتها . ولكن لا يبرح من ذهننا مع ذلك ان افضل وسيلة لاسعادها انما هي معاونتها على تأليف العائلة

ولنحذر التطرف في الروح الاستقلالية التي تفشت بين الافراد في هذا العصر - تلك الروح التي تهدد كيان العائلة وتلاشي الروابط المقدسة بين اعضائها . فلا يذهب عن بالنا أن اتحاد العائلة وتماسكها أساس كل سعادة اجتماعية . واذا سلمنا بذلك سلمنا أيضاً بأنه يكفي في الشؤون السياسية أن يكون الرجل نائباً عن الاسرة

فلتترك المرأة لرجلها ميادين السياسة والقتال ولتصرف همها الى تضميد الجراح وتسكين الآلام . بل هب انها استطاعت القيام بمهامنا فليس ذلك بذي شأن ما دمنا نحن لا نستطيع القيام بمهامها التي جعلت لها

واذا أحبت المرأة ان تخدم وطنها فانما تستطيع ذلك بتربية أولادها ليكونوا يوماً ما خدمة صالحين لبلادهم يدركون معنى الواجب والتعاون والتضحية . بذلك تقوم بواجبها خير قيام ، وبذلك تسعد الامة وتتقدم

فصل اضافي

تاريخ الحركة النسائية

في العصر الحديث

رأينا ـ اتماماً للفائدة ـ ان نذكر نبذة عن تاريخ الحركة النسائية حتى يتضح لنا ما نالته النساء من الحقوق في الدول المتمدينة ولا سيما بتأثير الحرب الماضية . فلقد حملت النساء من اعبائها قسطاً لا يستهان به حتى قال أحد الكتاب «ان ما خسرته البشرية من القدرة والنشاط بفقد الرجال قد استعاضت عنه بما نالته النساء من البراعة والتقدم في الصنائع والفنون»

يرجع المطالبون للنساء بالحقوق السياسية ـ دعماً لقضيتهم ـ الى الزمن السابق للدور التاريخي . فيقولون ان نظام الأمومة كان منتشراً بين جميع الامم في اول أمرها ، ولا يخفى انه كان للمرأة فيه المقام الأول . ثم يتدرجون مبينين ما كان من دخول المرأة في الشؤون السياسية في أزمنة وامكنة مختلفة مما ليس هذا محل الافاضة فيه . وانما غرضنا ان نبين ما كان من تلك الحركة في العصر الحديث اي من أيام الثورة الفرنسية الى هذا اليوم . ويجدر بنا ان نقسم

هذه المدة الى قسمين : قسم يشمل المدة السابقة للحرب الاوربية . والقسم الآخر يتناول تلك الحرب وما بعدها

أولا — قبل الحرب الاوربية

﴿ فرنسا ﴾ ان الثورة الفرنسية التي هدمت كل قديم — مع انها اعترفت ضمناً بمساواة الجنسين — قد خصت حق التصويت بالرجال وحدهم . على انه قد قام في ذلك العهد نفر من النساء المستنيرات للمطالبة بالمساواة المطلقة منهن أولامب دي جوج التي طلبت « اعلان حقوق المرأة » أسوة « باعلان حقوق الرجل » وانضم الى هذه الحركة نفر ليس بقليل من الرجال والنساء وتألفت الاندية لهذا الغرض والقيت الخطب وعقدت الاجتماعات. ولكن تلك الحماسة لم تلبث ان خمدت حتى انه لما استأثر نابليون بالحكم بعد عودته من مصر لم يكن لها في فرنسا اقل اثر. غير ان تلك الفكرة بعثت بعد حين ولا سيما في سنة ١٨٤٨ (وهي السنة التي أعلنت فيها الجمهورية للمرة الثانية) واتخذت المساعي اذ ذاك وجهة عملية ولكن حالما انقضى عهد الجمهورية الثانية (سنة ١٨٥٢) سكنت الحركة . اما الجمهورية الثالثة (الحالية) فلئن كان للمرأة فيها شأن لا يستهان به اذ فتحت لها ابواب كثيرة كانت مغلقة في وجهها فانها لم تنلها حق التصويت السياسي

﴿ انكلترا ﴾ يرجع تاريخ مطالبة النساء بالحقوق السياسية في انكلترا الى سنة ١٧٩٠ وأول المطالبات بها ماري ولستونكرافت

وليس من يجهل ما كان من معاضدة ستيورت ميل الفيلسوف الانكليزي للنساء . فقد قدم لمجلس العموم سنة ١٨٦٠ وهو احد نوابه عريضة امضتها ١٤٩٩ امرأة يطلبن فيها تحريرهن السياسي ولكن المجلس رفض الطلب . وقد تبع ميل جون برايت ففاز فوزاً جزئياً اذ منحت النساء في سنة ١٨٦٩ حق التصويت فيما يخص الشؤون البلدية . ومن ذلك الحين أخذت سلطة النساء الانكليزيات في الاتساع : ففي سنة ١٨٧٠ منحت المرأة حق التصويت وحق العضوية في المجالس المدرسية Schools Boards وفي سنة ١٨٧٥ منحت حق التصويت في انتخابات مجالس الاعانة العمومية Boards of Guardian وفي سنة ١٨٨٨ حق الانتخاب في مجالس المقاطعات وفي سنة ١٨٩٤ حق العضوية في مجالس الاعانة العمومية وفي سنة ١٩٠٧ حق العضوية في مجالس المقاطعات . على ان تلك الخطوات لم تقنع النساء الانكليزيات فانهن انما كن يطلبن حق الانتخاب وحق العضوية في البرلمان . وقد تقدمت اقتراحات كثيرة في هذا الشأن ولا سيما سنة ١٨٧٠ و ١٨٨٤ و ١٩١٠ و ١٩١٣ وكانت على وشك النجاح

ويجدر بنا التمييز في انكلترا بين فريقين من المطالبات بالحقوق السياسية : فريق يستخدم الطرق السلمية لنيل غرضه ، وفريق يعمد الى الوسائل الجبرية والمظاهرات العنيفة وهو فريق السوفراجيت Suffaettes . ومهما يكن الامر فان الجمعيات النسائية كانت تضم قبل الحرب اكثر من ٦٠٠٠٠٠ امرأة

﴿ المستعمرات الانكليزية ﴾ وفي حين لم تمنح انكلترا رعاياها

من الجنس اللطيف حق الانتخاب للبارلمان سبقتها مستعمراتها في هذا المضمار ولا سيما استراليا ونيوزيلندا . ففي سنة ١٩٠٧ كانت النساء قد نالت فيها كل الحقوق السياسية التي طالبت بها وآخرها حق التصويت في انتخابات البرلمان وحق العضوية فيه

أما في كندا فلم تنل النساء إلا حق الانتخاب لمجالس البلديات

﴿ البلاد السكندينافية ﴾ ان البلاد السكندينافية اقدم البلاد اعترافاً بحقوق النساء . ففي اسوج كان لصاحبات الاملاك منذ زمن بعيد نفوذ سياسي في المجالس المحلية . وفي سنة ١٨٦٢ منح حق الانتخاب البلدي للواتي يدفعن ضرائب تقدر بنحو ٧٠٠ فرنك في السنة على الاقل . ثم منح هذا الحق في سنة ١٩٠٩ لجميع النساء بلا تمييز ومع ذلك لم تنل المرأة حق الانتخاب للبرلمان . كذلك كان الحال في الدانمارك

أما في فنلندا ونروج فقد حازت النساء قبل الحرب بسنوات حقي التصويت والعضوية في المجالس البلدية والمحلية

﴿ الولايات المتحدة ﴾ وأما في الولايات المتحدة فان الفرق ظاهر بين الولايات الحديثة والولايات القديمة . ففي الولايات الشرقية (وهي أقدمها) لم تنل المرأة الا نجاحاً ضئيلا إذ منحت حق التصويت للمجالس المدرسية (في ١٨ ولاية) وحق التصويت فيما يختص بفرض الضرائب (في ٣ ولايات) ولكنها حرمت هذا الحق فيما يتعلق بالمجالس البلدية والمجالس النيابية

أما في الولايات الغربية فقد نمت الافكار الحديثة وانتشرت انتشاراً عظيماً . فانك تجد المساواة تامة بين الجنسين في الحقوق

السياسية في ولاية ويومنغ منذ سنة ١٨٦٩ وقد تبعتها ولايات كولورادو، يوتا، ايداهو، واشنطن، كاليفورنيا، اريزونا، كنزاس، اوريغون، نيفادا، مونتانا (سنة ١٩١٤)

﴿المانيا والنمسا﴾ كانت الدول الجرمانية متخلفة في هذا الشأن عن الدول السكندينافية والسكسونية. فكان للمرأة في المانيا حق الانتخاب البلدي ضمن دائرة محدودة وبشروط معينة. ويقال مثل ذلك في النمسا

ثانياً — الحرب وما بعدها

لقد كانت الحرب الاوربية دافعاً للحركة النسائية فنالت النساء في مدة قصيرة ما لم ينلنه في سنوات طويلة

ففي انكلترا نجحت الحركة النسائية نجاحاً عظيماً اذ ناصرها الجميع من اشتراكيين واحرار ومحافظين ـ الا نفراً قليلا من الرجعيين ـ فقد عد الانكليز منح المرأة الحقوق السياسية أفضل مكافأة لها على خدماتها الجليلة في اثناء الحرب. فقامت بهذه الدعوة امهات الجرائد الانكليزية كالتيمس والديلي ميل. وفي نوفمبر سنة ١٩١٧ اقترح في البرلمان «منح حق الانتخاب لكل امرأة بلغت من العمر ٣٠ سنة على شرط أن تكون مزوجة برجل له حق الانتخاب وأن تكون حائزة لحق الانتخاب البلدي أو حاصلة على لقب من الالقاب العلمية». ومع أن بعض المحافظين قاوموا هذا الاقتراح في مجلس اللوردات فقد نال الاغلبية

وأصبح قانوناً وبه حازت ٦٠٠٠٠٠٠ امرأة انكليزية الحقوق السياسية التامة

اما روسيا التي هي أحدث الدول الديمقراطية فقد حررت المرأة دفعة واحدة من كل قيد ومنحتها حق التصويت وحق العضوية في المجالس النيابية المختلفة . ولم يكن للمراة الروسية فيما مضى الا حق ضئيل في الانتخابات البلدية

وقد تقدمت قضية النساء في الولايات المتحدة بعد الحرب ونلن الحقوق التي كن يطالبن بها ويقال مثل ذلك في معظم الاقطار الغربية فان المرأة الان تنتخب وتنتخب وتجلس في المجالس النيابية وقد رأينا أخيراً امرأة تتولى منصب الوزارة في الدانمارك

أما فرنسا فانها لم تمنح المرأة حقوق الانتخاب السياسي ولكن الحركة النسائية فيها آخذة في التقدم

محتويات الكتاب

صفحة

٥ مقدمة المعرب :

١١ الفصل الأول : تمهيد

مباحث الكتاب. مصادر الكتاب. روح الكتاب

٢٣ الفصل الثاني : حالة المرأة الاجتماعية في الماضي

تقلب حالة المرأة . قياس الرقي . الاستشهاد بالقوانين . الهند . اليونان . رومة . النصرانية . فرنسا والامم الغربية . تأثر خلق المرأة من حالتها الماضية

٣٧ الفصل الثالث : حالة المرأة الجسمانية ووظيفتها الحيوية

الفرق الاساسي بين الجنسين . الفروق التشريحية . وظيفة الانوثة وأخطارها . نتائج الانوثة من الوجهة النفسانية . نظرة الى المستقبل

٥١ الفصل الرابع : الفتاة . مقابلة بين اخلاق الجنسين قبل سن البلوغ

الفروق الاصيلة والفروق المكتسبة . الحركة . الكلام . التقليد . الاحساس . الاميال . الارادة . الذكاء

٦٢ الفصل الخامس : احساس المرأة بوجه الاجمال

دور الانتقال . شدة الاحساس . اعتراض لومبروزو . الاستشهاد بعلم الخطوط . زخم

صفحة

العواطف في قلب المرأة . وجهة الاحساس الغالبه
فائدة تهذيبية
٧٣ الفصل السادس : احساس المرأة (تابع) الاميال التي مرجعها النفس
حب الذات . المظاهر السفلى . المظاهر الوسطى .
المظاهر الراقية . حب المرأة للتقريظ . الحسد .
الطموح . حب السيطرة
٨٩ الفصل السابع : احساس المرأة (تابع) . الاميال التي مرجعها الغير
حب الام . المخاصمة . قصر المجال . التقلب .
الصداقة
١٠١ الفصل الثامن : احساس المرأة (تتمة) . العواطف المركبة والعواطف السامية
الغيرة . الثرثرة . الشرف . الواجب . سلوك
المرأة . غريزة الحق . احساس الجمال . الشعور
الديني
١١٦ الفصل التاسع : ذكاء المرأة
مميزات ذكاء المرأة . نقص ذكاء المرأة . الادراك .
الذاكرة . الابتكار . الخيال . حب الاستطلاع .
الكفاءة للبحث العلمي . الخلاصة
١٣٥ الفصل العاشر : ارادة المرأة
تعريفات تمهيدية . الجرأة . قوة البت والتقرير .
قوة التنفيذ والثبات . الجلد . العناد
١٤٥ الفصل الحادي عشر : مصير المرأة

صفحة

غاية المرأة من الوجود . المرأة خارج الحياة الزوجية . مشاركة المرأة للرجل في خواص البشر الاساسية

١٥٢ الفصل الثاني عشر : مصير المرأة (تابع) . ما تحتمله حالتها من أوجه التحسين

آراء جون ستيورت ميل . رأي سكريتان . تمحيص المسألة . اصلاح التعليم النسائي . اباحة المهن للنساء . التعليم الصناعي . المرأة الطبيبة الوظائف العمومية

١٦٤ الفصل الثالث عشر : مصير المرأة (تتمة) . مسئلة الحقوق السياسية

١٧٠ فصل اضافي : تاريخ الحركة النسائية في العصر الحديث

DATE DUE

[redacted]
ماريون ،هنرى
خلق المرأة والمقابلة بين طبائعها وطب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033740

American University of Beirut

[redacted]

General Library

305.42
M341p2A